لغة القرآن الكريم
إعجاز أم مجرد عبقرية؟

مختصر كتاب

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

مختصر كتاب

المعجزة

لغة القرآن الكريم:

إعجاز أم مجرّد عبقريّة؟

مختصر كتاب

المعجزة

لغة القرآن الكريم: إعجاز أم مجرّد عبقريّة؟

الجزء الأول

ظواهر اللغة الجديدة التي نزل بها القرآن

أحمد بسام ساعي

١٤٠١هـ - ١٩٨١م
1401AH—1981AC

المعهد العالمي للفكر الإسلامي

© المعهد العالمي للفكر الإسلامي - هرندن - فرجينيا - الولايات المتحدة الأمريكية

الطبعة الأولى 1434هـ/ 2013م

مختصر كتاب المعجزة:
لغة القرآن الكريم إعجاز أم مجرّد عبقريّة

تأليف: أحمد بسام ساعي

موضوع الكتاب: الإعجاز التجديدي في القرآن الكريم

ردمك (ISBN): 978-1-56564-598-1

جميع الحقوق محفوظة للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل أو واسطة من وسائط نقل المعلومات، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك النسخ أو التسجيل أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

المعهد العالمي للفكر الإسلامي
المركز الرئيسي - الولايات المتحدة الأمريكية
The International Institute of Islamic Thought
P. O. Box: 669, Herndon, VA 20172. USA
Tel: (1-703) 471 1133 / Fax: (1-703) 471 3922
www.iiit.org / iiit@iiit.org

مكتب التوزيع في العالم العربي
بيروت - لبنان
هاتف: 009611707361 - فاكس: 009611311183
www.eiiit.org / info@eiiit.org

الكتب والدراسات التي يصدرها المعهد لا تعبر بالضرورة عن رأيه وإنما عن آراء واجتهادات مؤلفيها

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

مدخل 9
إعجازٌ أم مجرّد عبقريّة؟ 15
ما الإعجاز عند القدماء؟ 19
1 - الجانب الجماليّ أو البلاغيّ 19
2 - الجانب التعبيريّ 20
3 - الجانب العلميّ 20
وقع الصدمة التجديديّة على العربيّ الأوّل 23
الحجم الحقيقيّ للإعجاز التجديديّ 25
الكثافة الإعجازيّة للمواقع التجديديّة 27
النفوذ المحيِّر للبِنية الإيقاعيّة الجديدة لدى العرب 29
رحلتي في آلة الزمان 31
بين المعجم القرآنيّ والمعجم الجاهليّ والمعجم النبويّ 33
الثورة اللغويّة الجديدة 35
شخصيّة (السورة) القرآنيّة 37
هل تتداخل شخصيّات السوَر؟ 41
بين سورتيْ (الأعلى) و (الليل) 41
الشخصيّة المتفرّدة للقرآن 43
السبيكة اللغويّة الجديدة 46
معظم سبائك القرآن لا يتكرّر فيه 47

كثافة السبائك القرآنيّة المتفرّدة 49
طبيعة السبيكة القرآنيّة وتركيبتها 52
فأْتُوا بسورةٍ مثلِه 55
السبيكة النبويّة 56
جِدّة التركيب والتعبير 58
التركيب القرآنيّ 59
التراكيب والتعبيرات الجديدة في (المدّثّر) 60
الألفاظ ومعجزة الجمع بين الجِدّة والوضوح 63
أهمّية الألفاظ الجديدة 64
الألفاظ الجديدة في (المدّثّر) 67
الاستعمال الجديد للأدوات في (المدّثّر) 68
إعادة تكوين الوحدة اللغويّة 70
الوضع الجديد لأدوات الربط التقليديّة 72
العلاقات الجديدة بين الألفاظ 73
القاموس القرآنيّ الجديد للصور 77
الصورة ذات الأبعاد المتعدّدة 79
الصورة الافتراضيّة 80
أنواع الصور في سورة (المدّثر) 81
"الالتفات" فنّ خاصٌّ بالقرآن 83
التفات الزمن 85
التفات النصب 86
اللغة المنفتحة 89
المواقع الانفتاحيّة في سوة (المدّثّر) 94
القراءات القرآنيّة والانفتاح 95
أهمّ المصادر والمراجع 99

مدخل

كانت البداية عام 1989 حين طلب منّي مركز أوكسفورد للدراسات الإسلاميّة إلقاء محاضراتٍ على الطلبة البريطانيين الساعين إلى فهم اللغة العربيّة من خلال القرآن الكريم. وكانت تجربةً فريدةً لي وأنا أحاول أن أترجم لتلامذتي معاني القرآن إلى اللغة الإنجليزيّة ثمّ أتلقّى أسئلتهم اللغويّة المحيّرة التي تجرّك بعيداً عن حدود أيّة تقاليد أو أعرافٍ ألِفَها المفسّرون واللغويّون.

وصادف أنني كنت أعمل ذلك الحين في تحقيق كتابٍ أندلسيٍّ مع مستشرقٍ بريطانيٍّ صديقٍ في كلّية الدراسات الشرقيّة بجامعة أوكسفورد، فسألني يوماً: هل نقول في العربيّة (ما زال) أم (لا زال)؟ وأجبته ببساطةٍ: بل (ما زال). ولكنّه أصرّ على (لا زال) وأصررتُ على (ما زال)، وفاجأني في النهاية بقوله: أحدكما مخطئ: أنت، أو الله. وحتّى ينقذني من دهشتي تابع قائلاً: إنّ القرآن لم يستخدم قطّ إلّا (لا زال).

وجمتُ للحظةٍ، ثمّ تمالكت نفسي وعدت لأفاجئه بهذا السؤال: كيف تترجم الفعل (كان) إلى الإنجليزيّة؟ ولم يتردّد في أن يجيب: *was* فقلت: إذن ترجمْ لي هذه الجملة القرآنيّة:

(**وكان اللهُ غفوراً رحيماً**) وأجابني حالاً: *And Allah Is Oft-Forgiving Most Merciful* فسألته: أين الفعل (كان) في هذه الترجمة؟ ولم يُحِر جواباً، إذ لم يجد أمامه إلّا *is* وهي بمعنى (يكون) أو (إنّ)؛ وليس بمعنى (كان).

إنّ للقرآن لغته واستعمالاته الخاصّة التي تختلف عن استعمالاتنا البشريّة، الرسميّة منها واليوميّة. ولم يستطع أحدٌ إلى الآن، ولا الرسول نفسه (ص)، استخدام الفعل (كان) بمعنى (إنّ) رغم أنّه ورد بهذا المعنى في القرآن 190 مرّة. ولكنّني حين عدت إلى القرآن الكريم لأتثبّت ممّا قاله زميلي المستشرق عن (ما زال) فوجئت بأنّ القرآن قد استخدم (ما) فقط مع الماضي، أي (ما زال)، و (لا) فقط مع المضارع، أي (لا يزال)، فلا نجد فيه (لا زال) ولا (ما يزال) مطلقاً. ولكنّ المفاجأة الأكبر كانت في اختلاف الاستعمال القرآنيّ للفعل أيضاً، بصيغتيه الماضي والحاضر، عن استعمالنا له. إنّنا حين نقول: ما زال المطر يهطل، سيفهم السامع أنّ المطر كان يهطل من قبل وهو مستمرٌّ في الهطول إلى الآن، فالفعل يستغرق الزمنين (**الماضي والحاضر**) معاً ثمّ لا يتجاوزهما إلى المستقبل. هذا هو شأننا مع الفعل في استعمالاتنا البشريّة. ولكنّ صيغة الماضي (ما زال) في الآيتين الوحيدتين اللتين تَرِد فيهما، تغطّي الزمن (**الماضي دون الحاضر**). لقد جاء الفعل في كلتا الآيتين بمعنى: (ظلّ) أو (استمرّ) فيما مضى من الزمان ثمّ لم يعُدْ هكذا:

- ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ [الأنبياء: 15]

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ﴾ [غافر: 34]

فالآية الأولى تعني: لقد استمرّوا بهذه الدعوى (في الماضي) حتّى قُضي عليهم وانتهوا (في الماضي). والآية الثانية تعني: حافظتم (في الماضي) على الشكّ في رسالة يوسف حتّى مات (في الماضي). وهكذا بدأ زمن الفعلين وانتهى في الزمن الماضي من غير أن يدخل في منطقة (الحاضر). أمّا صيغة المضارع في الاستعمال القرآنيّ (لا يزال) فإنّها تستغرق (الماضي والحاضر والمستقبل) معاً، أي: كان الأمر في الماضي، وهو كذلك الآن، وسوف يستمرّ هكذا في المستقبل، ممّا توضّحه الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ﴾ [البقرة: 217]

- ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ﴾ [التوبة: 110]

- ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود: 118-119]

هكذا كانت "المواجهات" الفكريّة مع "الآخر" في العالم

الغربيّ بمثابة الشرارات الأولى التي أضاءت لي سبل التفكير الجدّي بإعادة النظر في قراءتي العاديّة للقرآن الكريم التي كانت مخدَّرةً بالتأثير الخطير للأُلْفة والتكرار اليوميّ، وهما اللذان يحجبان عنّا كثيراً ممّا أحسّه وأدركه العربيّ الأوّل حين كان يلتقط الآيات الأولى تتنزّل تباعاً على رسول الله ﷺ فتهزّه جِدّتها، ويحيّره نظامها وقد وجد فيه شيئاً مختلفاً عمّا أَلِفه من أساليب، فتنقلب هذه الحيرة وتلك الهزّة في نفسه تساؤلاً مصيريّاً: ما الذي يحدث من حولي؟ إنّ الأمر أبعد وأخطر من أن يكون مجرّد أسلوبٍ متميّزٍ آخر لكاتبٍ ناشئٍ أو شاعرٍ صاعدٍ أو كاهنٍ مدّعٍ.

لقد حاولتُ ما استطعت أن أدخل بالقارئ إلى هذه الأسرار القرآنيّة برفقٍ وأناة، فأُبرزُ كلّ ما أَدخَله القرآن في بنائنا اللغويّ من تغييرات، وقدّمت لهذه المستجدّات بشرحٍ عامٍّ ومفصّلٍ لطبيعتها وأنواعها يستغرق هذا القسم الأوّل من الكتاب، وأستمدّ شواهده من مختلف سوَر القرآن الكريم، مع إعطائي عنايةً خاصّة، في معظم فصوله، لإحدى أوائل السوَر نزولاً، ومن ثمّ أكثرها بكوراً في التصادم مع الأعراف اللغويّة العربيّة، وهي سورة (المدّثر)، بحيث غطّت معظم فصول هذا الجزء، فيما غطّته من الظواهر العامّة في مختلف سوَر القرآن، الجوانبَ اللغويّة والنحويّة والبلاغيّة المستجدّة في تلك السّورة.

ثمّ خصّصتُ القسم الثاني من الكتاب، لتطبيق الظواهر التي درسناها في القسم الأوّل على سوَر القرآن الكريم كلٌّ على حدة،

مؤْثِراً أن أَشرع بأكثرها تداولاً، وهي السّوَر القصيرة، فبدأت بـ (الفاتحة) لأنتقل بعدها إلى آخر عشرين سورةٍ في القرآن، بدءاً من (الناس) ثمّ (الفلق) ثم (الإخلاص) وهكذا مرتدّاً بالدراسة إلى الوراء حسب الترتيب التراجعيّ للسّوَر.

ومع ثقتنا الأكيدة بريادة هذا العمل الذي نُقْدم عليه، متحرّرين من قيود التعتيم التاريخيّ الطويل على حقيقة التجديد اللغويّ في القرآن الكريم، لا بدّ من التأكيد باستمرار على الحقيقة التي لا ينبغي لباحثٍ حصيفٍ أن يُغفلها، وهي أنّ أيّ تفسيرٍ بشريٍّ للقرآن، أو تحليلٍ لغويٍّ، أو كشفٍ إعجازيٍّ بلاغيٍّ أو لغويٍّ أو علميّ، مهما اتّخذت من أشكالٍ وأساليب موضوعيّة، تبقى في حدود الترجيح وتخضع لاحتمالات الخطأ البشريّ. وكلّ ما نأتي به في هذا السبيل إنّما هو محاولاتٌ مخلصةٌ للاقتراب من الحقيقة المطلقة، التي نجد أنفسنا في النهاية عاجزين عن الوصول إليها ما دمنا نتعامل مع اللانهائيّ وغير المحدود من الإعجاز الإلهيّ بقدراتنا البشريّة الضعيفة والقاصرة والمحدودة.

إعجازٌ أم مجرّد عبقريّة؟

بدايةً، يجب أن أعترف بأنّني كنت في المرحلة الأولى من حياتي أؤمن بالإعجاز اللغويّ للقرآن إيماناً راسخاً، ولكن بوصفي مسلماً فحسب، إذ لم أكن في الحقيقة قادراً على إدراك هذا الإعجاز بعقلي؛ وتمييزه ووضع أصابعي عليه بوسائل بحثي البدائيّة. لقد كنت أرى في لغة القرآن الكريم جمالاً أخّاذاً، وفصاحةً متناهية، ودقّة تعبير، وبلاغةً وإيقاعاً وسحراً وتميّزاً، ولكنّني لم أكن أدرك أنّ هذه الصفات جميعاً شيءٌ؛ وأنّ الإعجاز اللغويّ شيءٌ آخر أعمق سبراً، وأمنع وصولاً، وأعظم خفاءً، وأشدّ استحالةً على البشر. كنت أمنّي النفس دائماً بأنّني سأكون، بعد أن أصل إلى مرحلةٍ ثقافيّةٍ أفهم معها البلاغة العربيّة جيّداً، أكثر قدرةً على اكتشاف الإعجاز القرآنيّ الذي لم يستطع أيٌّ من كتب السابقين إقناعي، وبشكلٍ علميٍّ غير قابلٍ للدحض، بوجوده في القرآن الكريم.

نعم لقد وضعوا لفظ (الإعجاز) في عناوين كتبهم، ولكنهم لم يتحدّثوا إلّا عن البلاغة والروعة والجمال والدقّة في التعبير، وهذه كلّها صفاتٌ قد نجدها، على تفاوت، في آداب البشر أيضاً مهما اختلفت لغاتهم وأجناسهم. فكم هناك من عباقرةٍ وأقلامٍ

وألسنةٍ وعقولٍ سحرت العالم بإبداعاتها، وحيّرت النفوس بفنّها، فكان أن وُصفت بكلّ صفةٍ، ولكن ليس الإعجاز. لماذا نصرّ إذن على أن نخصّ القرآن الكريم وحده بهذه الصفة؟ وأين هو الإعجاز فيه إذا كان تعريف الإعجاز هو: ما لا يقدر عليه بشر؟ نعم، قد يكون في هذه الجوانب مجتمعةً ما يصبّ في النهاية في بحر الإعجاز، فيعمّقه ويوسّعه ويخصبه ويغنيه، ولكنّه لن يكون وحده كافياً، وبشكلٍ علميٍّ قاطع، لتشكيل ذلك المحيط الضخم الذي نسعى لاكتشافه وإثباته.

وفي مرحلةٍ تاليةٍ من حياتي اللغويّة، وقد تخرّجت من قسم اللغة العربيّة، واجهني السؤالُ نفسه، ووجدت الجوابَ ما يزال هو نفسه. ثمّ حصلت على الماجستير ثمّ الدكتوراه في الأدب العربيّ، ووجدتُني مرّةً أخرى، وأؤكّد على الاعتراف، عاجزاً عن رؤية الإعجاز اللغويّ في القرآن، بوصفي، أو بالرغم من أنّني، أصبحت، في نظر نفسي على الأقلّ، باحثاً وناقداً أدبيّاً متمرّساً بفنون اللغة والأدب!

وأعترف أنّني، في عمليّة البحث المستمرّة عن الإعجاز المفقود، كنت أواجه دائماً هذه المعضلة المنهجيّة الشاقّة: كيف أوفّق في داخلي بين المسلم والباحث، أو بتعبيرٍ أكثر بساطةً: بين العاطفة الدينيّة، القابلة للأخذ والردّ، والمؤمنة بالإعجاز بالولادة، تماماً كإيمانها المطلق بالإسلام وبكتابه، وبين التحليل العلميّ المجرّد الذي لا يُردّ، والذي لا تتدخّل في أحكامه عاطفةٌ أو إيمانٌ أو اجتهادٌ فرديٌّ أو رأيٌ جاهزٌ مسبق الصنع؟ أين

تتوقّف حدود العبقريّة، الهلاميّة وغير القابلة للإمساك، لتبدأ حدود الإعجاز المطلق الذي لا نقاش فيه ولا تردّد، لأنّه يستند إلى الحقائق العلميّة، ويتحدّث بلغة الأرقام، فلا تنطلق تلك الأحكام من الأذواق الشخصيّة أو المواقف الإنسانيّة المتأرجحة مدّاً وجزراً، ولا تصدر عن الترجيحات والاحتمالات والتوقّعات البشريّة القاصرة والمتبدّلة في أحكامها مع الزمن؟

كان هذا كلّه قبل أن أشرع في الدخول إلى المرحلة الثالثة من سنّي العلميّة، ومواجهة السؤال الملحّ والمحيّر: أين الإعجاز في لغة القرآن الكريم، الإعجاز بمعنى الكلمة الحقيقيّ، وليس العبقريّة والفصاحة والتميّز والدقّة والجمال؟ تُرى هل فقدت كلمة (إعجاز) في معاجم أذهاننا اللغويّة معناها الأصلي، وتراجعت إلى معنىً اصطلاحيٍّ جديدٍ فقدت ذاكرتُنا معه الاعتراف بالمعنى الأوّل، فلم تعد تعني عندنا أكثر من مجرّد: المتفوّق أو المتميّز أو العبقريّ؟

ما الإعجاز عند القدماء؟

لقد درس القدماء والمحدَثون بدأبٍ وغزارةٍ جوانب عديدةً ممّا سمّوه الإعجاز القرآنيّ؛ أستطيع أن أحصرها في ثلاثة جوانب:

1 - الجانب الجماليّ أو البلاغيّ:

وهو يتّجه إلى إثبات أنّ القرآن الكريم معجزةٌ جمالية في لغته ونظمه، وكان من أوائل من كتبوا في هذا المعنى الجاحظ والرمّاني والواسطيّ وأبو زيد البلخيّ وأبو هلال العسكريّ والخطّابيّ والباقلّانيّ والقاضي عبد الجبّار الأسدآبادي وعبد القاهر الجرجانيّ وابن أبي الإصبع وابن قيّم الجوزيّة، وغيرهم. ولكنّ الجمال يبقى مسألةً نسبيّةً قابلةً للنقاش وعرضةً للتغيّر من فردٍ إلى فرد، ومن مجتمعٍ إلى مجتمع، ومن زمنٍ إلى زمن. ويجب أن نعترف بأنّ اللغويّين الغربيّين لو اتّبعوا مناهج علمائنا في إثبات الإعجاز اللغويّ للقرآن، ولا أكاد أستثني من هؤلاء أحداً، لقادهم ذلك إلى إثبات أنّ عباقرةً مثل شكسبير أو دانتي أو روسو أو غوته هم أيضاً آلهة.

2 - الجانب التعبيريّ:

وهو يتّجه إلى إثبات أنّ القرآن معجزةٌ لغويّةٌ في دقّة تعبيره، فتحدّثوا عن الفروق اللغويّة الدقيقة بين ألفاظه وتراكيبه وتعبيراته التي قد يخيّل إلينا أنّها متشابهةٌ وهي ليست كذلك، ممّا عُرف عند الباحثين بـ (متشابه القرآن). وكان الجاحظ من أوائل من نبّه إلى هذا الجانب في كتابه (البيان والتبيين) ثمّ تلاه القاضي عبد الجبّار في (متشابه القرآن) والإسكافيّ في (درّة التنزيل وغرّة التأويل) والرازي في (درّة التنزيل) والكرمانيّ في (البرهان في توجيه متشابه القرآن) وغيرهم.

3 - الجانب العلميّ:

وهو جانبٌ ابتدأ بالظهور في تراثنا، خلافاً لما يظنّه الكثيرون، منذ فترةٍ مبكّرةٍ جدّاً، وحاول فيه القدماء، ثمّ تابعهم المُحدَثون، أن يثبتوا أنّ القرآن معجزةٌ علميّة بما جاء فيه من حقائق كونيّةٍ لم تُكشف إلّا في العصور المتأخّرة. وهذا الجانب، لو سَلِم من التعسّف ومن المناهج غير العلميّة التي انزلق إليها كثيرٌ ممّن كتبوا فيه، هو ممّا لا يمكن أن يماري في حقيقته مُمارٍ. ولكنّ معظم من كتبوا أو تحدّثوا في هذا الجانب من المعاصرين كانوا، للأسف، كأنّما يضحكون على أنفسهم وعلى قرّائهم، فلا تخصّص في الجانب الإعجازيّ الذي يتحدّثون عنه، ولا خطابٌ علميّ، ولا توثيقٌ، ولا إحالةٌ علميّةٌ إلى المصادر الغربيّة لمادّة بحوثهم من علماء أو دوريّاتٍ أو مراكز بحث. لقد كان القدماء معذورين إلى حدٍّ كبيرٍ في عدم الإحالة إلى تلك المصادر،

ولكنّهم على أيّة حال كانوا أكثر منهجيّةً من المُحْدَثين. كان العرب والمسلمون يملكون آنذاك ناصية العلوم والاكتشافات في العالَم، وكانوا هم المرجع الأوّل في إثباتها أو نفيها، يوم أن كانت الحضارة تكتب من اليمين إلى اليسار. كنّا نتكلّم والعالم يسمع، ونُملي وهو يكتب، ولكنّ الأمر انقلب تماماً اليوم، ومراكز الإشعاع العلميّ ومصادر الاكتشاف وصناعة القرار العلميّ انتقلت إلى الضفّة الأخرى من العالم بعد أن غدت الحضارة تُكتب من اليسار إلى اليمين. كان من أوائل من طرق باب الإعجاز العلميّ من القدماء: الجاحظ (ت255هـ) وابن سُراقة (ت415هـ) والماوَردي (ت450هـ) والغزالي (ت505هـ) والقاضي عياض (ت544هـ) وفخر الدين الرازيّ (ت606هـ) وابن أبي الفضل المُرسيّ (ت655هـ) وداود الإنطاكيّ (ت1008هـ)، ومن المُحدَثين: الاسكندرانيّ (ت1889م) وعبد الرحمن الكواكبيّ (ت1903م) وطنطاوي جوهري (ت1940م). ونشطت حركة التأليف في هذا الباب في القرن العشرين، وكان منها سلسلةٌ من الكتب التي تتحدّث عن "الإعجاز العدديّ" في القرآن كان من بواكيرها كتاب عبد الرزّاق نوفل "الإعجاز العدديّ في القرآن الكريم" الذي صدر في أوائل السبعينيّات، وقد أتى فيه بقوائم لا نهاية لها "للمثاني" التي بُنيت عليها لغة القرآن الكريم. فعدد ألفاظ الليل بعدد ألفاظ النهار، وعدد ألفاظ الجنة بعدد ألفاظ النار، وعدد ألفاظ الملائكة بعدد ألفاظ الشياطين، بل اكتشف أن اللفظ (شهر) يَرد (12) مرة في القرآن، أمّا اللفظ (يوم) فيَرد (365) مرّة. والحقيقة أنّ الإمام الفخر الرازي كان أوّل من نبّه

في تفسيره الكبير إلى هذا السرّ اللغويّ في القرآن الكريم عند حديثه عن اللفظ "مثاني" في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الزُمر: 23]. [**التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت: 2001، ج 9، ص 446**]

أمّا هذا الكتاب فسيقف وحده، بين كلّ ما كُتب في الإعجاز القرآنيّ، ليتحدّث عمّا يعدّه المؤلّف الجانب الإعجازيّ الحقيقيّ في لغة القرآن الكريم، وهو جدّة هذه اللغة، جدّةٌ لا تقتصر على لفظٍ هنا أو تعبيرٍ هناك، بل تغطّي لغة القرآن الكريم من ألِفها إلى يائها، عموديّاً وأفقيّاً، لغويّاً وبلاغيّاً، لفظاً وأداةً وتركيباً وتعبيراً وسبكاً وإيقاعاً وصورةً وبياناً، وبكثافةٍ يستحيل على البشر الإتيان بمثلها أو حتّى الاقتراب منها، مع الحفاظ على أسس اللغة العربيّة، ومع فهم الناس لها، بل إعجابهم بها إعجاباً فاق كلّ تصوّر.

وقع الصدمة التجديديّة
على العربيّ الأوّل

كانت هذه اللغة الجديدة المتوزّعة على مختلف جوانب الأسلوب، اللفظيّة والتعبيريّة والنحويّة والصرفيّة والبيانيّة، فضلاً عن الجانب الفكريّ، باعثَ حيرةٍ وذهولٍ لدى من سمعوا التنزيل لأوّل مرّة، وكانت عبارةٌ قرآنيّةٌ صغيرةٌ من ثلاث كلماتٍ مثل (**فاصدَعْ بما تُؤمَر**) كافيةً لتهزَّ البدويّ الذي سمعها مصادفةً فيقول: ما هذا الذي أسمع!! ليس هذا بكلام بَشَر، ثمّ يسجد قائلاً: "**سجدتُ لفصاحة هذا الكلام**". [الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003. ج2، ص108].

إنّ شيئاً ما خفيّاً يحدث هنا لم تستطع آذاننا المعاصرة اكتشافه. فمِن أين لنا أُذُن عمر، أو أذن ذلك البدويّ، أو آذان من أسلم من العرب لمجرّد سماعهم للغة القرآن الكريم، نستبدل بها آذاننا، فنكتشف من إعجاز القرآن ما اكتشفوا، ونُحسّ من لغته ما أحَسّوا، ممّا عجزنا نحن عن الإمساك به ووضع أصابعنا عليه؟

كنت أتساءل دائماً فيما بيني وبين نفسي: أن يتحدّى القرآن الكريم العربَ بأن يأتوا بمثله أمرٌ مثيرٌ، ولكنّه واقعيٌّ ومعقول. ثمّ

أن يتحدّاهم بأن يأتوا بعشر سوَرٍ من مثله أمرٌ مدهشٌ، ومثيرٌ للقلق، ودَلالةٌ قويّةٌ وغير عاديّةٍ على ثقة المتحدّي أمام المتحدَّى. لكن أن يتحدّاهم بعد ذلك مرّتين، وفي سورتين مختلفتين متباعدتين في نزولهما (البقرة ويونس) بأن يأتوا (**بسورةٍ من مثله..**) بسورةٍ واحدةٍ فحسب**!** فهذا أكثر من عجيب، وأكثر من مجرّد ثقةٍ عاديّةٍ للمتحدّي أمام المتحدَّى. ماذا لو فعلوها وتداعى كبارُهم للاجتماع، من شعراء وأدباء وخطباء ولغويّين وعباقرة، وتعاونوا على كتابة سورةٍ صغيرةٍ واحدةٍ بحجم سورة (الضحى)، أو ربّما بحجم سورة (العصر) أو (الكوثر)، أي إنّها مسألة تأليف سطرٍ واحدٍ لا أكثر؟**!** هل سيكون الأمر شاقّاً عليهم إلى هذه الدرجة؟ أوَليست اللغة لغتَهم وبينهم من هم أدباؤها وعباقرتها وأمراء بيانها؟

الحجم الحقيقيّ للإعجاز التجديديّ

وأعترف بأنّني لم أكن أدرك نوعيّة التحدّي ساعةَ تصدّيت للإجابة عن هذا السؤال وقرّرت أن أُدخل لغة القرآن الكريم إلى مخبري اللغويّ وأضع نسيجها تحت المُجهِر. لم أتبيّن أبداً من قبل، وبثقةٍ ووضوحٍ كاملين، أنّ وراء كلّ آيةٍ، بل كلّ عبارة، وأكاد أقول: كلّ لفظةٍ، معجزةً و "اختراعاً" بل أكثر من اختراعٍ واحدٍ في كثيرٍ من الأحيان - وأعتذر إلى الله إذ لم أجد غير هذا اللفظ البشريّ القاصر للتعبير عن طبيعة إعجازٍ لا تحيط به لغتنا، ولله دائماً المثل الأعلى - فطأطأت مذعناً لسموّ التحدّي الإلهيّ الحكيم.

منذ بدأت أتبيّن تلك الحقيقة؛ صرت كلّما اقتربت من لغة القرآن لمعالجتها واكتشاف أسرارها؛ أتصوّر نفسي وكأنّني مسِخٌ صغير يحاول أن يتسلّق إصبعاً من أصابع قدمِ عملاقٍ هائل، ثمّ لا يكون له ذلك. إنّ ما في هذه اللغة ليس نوعاً من الاختراعات العلميّة التي عرفناها في هذا العصر، ولكنّها مستجِدّاتٌ لغويّةٌ مذهلةٌ مستعصيةٌ ومتنوّعة المعالم والأشكال، تتوالى وتتلاحق، بعضها يأخذ بعَناق بعض، بحيث يصاب من يحاولها أو يتصدّى لتقليدها بإحباطٍ يدرك معه أن لا سبيل إلى المطاولة والمكابرة.

أرأيت لو أنّ لك حديقةً جميلةً تخرج إليها كلّ يوم متنزّهاً، فتشمّ زهرةً ههنا، وتكتشف برعماً جديداً هناك، وتقطف ثمرةً من هذه الشجرة، وأخرى مختلفة الطعم من تلك، ثمّ جاء من يقول لك إنّ في حديقتك، التي تستمتع كلّ يوم برؤية عشرات الأشياء الجميلة فيها، آلافاً من الأسرار العجيبة التي خَفيت عنك ولم تقع عيناك عليها أبداً؛ رغم أنّها قريبةٌ إليك وفي متناول يديك وتحت نظرك. ثم ما يلبث أن يقدّم لك نظّاراتٍ، فتضعها على عينيك، وإذا أنت أمام مشهدٍ مختلفٍ تماماً عمّا عهدته من قبل: فتحت كلّ حجرٍ في الحديقة لؤلؤةٌ ثمينة، وبين كلّ ورقتين من أوراق الورد صفيحةٌ رقيقةٌ من الفضّة، وتحت لِحاء كلّ شجرةٍ عصارةٌ من عطرٍ رائعٍ لم تعرفه من قبل، وبين كلّ ذرّتين من ترابها ذرّةٌ من معدِنٍ ثمين، و و... كلّ هذا في حديقتك وأنت لا تعلم!

كان جلّ عملي في هذا البحث هو لإيجاد مثل هذه النظّارات الخاصّة، والإمساك بيد قارئ القرآن ليتخلّص، بنظّارتيه الجديدتين، من الألفة التي تقتل قدرته على رؤية الإعجاز التجديديّ فيه، وليفاجأ، وهو ينظر من خلال العدستين الجديدتين، بأسرارٍ وحقائق لغويّةٍ وبيانيّةٍ لا حدود لها، ولم يكن يدري عنها قبل ذلك شيئاً.

الكثافة الإعجازيّة للمواقع التجديديّة

أذكر أنّني اطّلعت مرّةً على صورةٍ - لُغزٍ لسلاسل شاهقةٍ وغريبةٍ من الجبال تبدو لغرابتها ورهبة منظرها وكأنّها أُخذت لسطح القمر أو المرّيخ، وحين قلبت الورقة لأقرأ الإجابة عن هذا اللغز فوجئت بأنها لم تكن إلّا صورةً مكبَّرةً جدّاً للخطوط الدقيقة التي تشكّل بصمة إصبع. هذا تماماً ما سوف يشعر به القارئ وهو يشاهد تضاريس اللغة القرآنيّة، أو ما استطعنا أن نكتشفه منها حتّى الآن، من خلال عدسة المجهر التي يحاول أن يقدّمها له هذا البحث، فيستعين بها على الإمساك بتلك الحقائق اللغويّة المثيرة، في حجمها المحيِّر المذهل.

وربّما وقفنا عند إحدى هذه الحقائق، بمعزلٍ عمّا قبلها وما بعدها من حقائق، فاستسهلْنا أمرها، وزهِدنا في تقييم شأنها، وربّما ردّدنا في أنفسنا: نعم، إنّها جديدةٌ حقّاً، ولكن متى كان التجديد إعجازاً؟ ونحن محقّون في هذا الاعتراض، فليس هناك وجهٌ للإعجاز لو توقّفنا عند نقطةٍ واحدةٍ أو اثنتين أو ثلاثٍ من هذه النقاط منعزلةً عن أخواتها. فقط عندما نكتشف كثافة المواقع التي شُحنت بها الآياتُ والسوَر من هذه المستجِدّات، ونعرف كيف تتوالى الواحدة إثر الأخرى بدون توقفٍ ولا تنفّسٍ ولا

استراحةٍ ولا فجواتٍ، وكيف تختفي تحت كلّ كلمةٍ أو تركيبٍ أو عبارةٍ قرآنيّةٍ، وفي تضاعيفها وخلف أثوابها، واحدةٌ أو اثنتان أو ثلاثٌ أو أكثر من عجائب التجديد التعبيريّ وأشكاله وألوانه، عند ذلك سندرك طبيعة الإعجاز اللغويّ القرآنيّ واستحالتَه على التقليد أو التزييف.

قد يقال: وهل بقي شيءٌ في العالم غير قابل للتقليد؟ لقد زيّفوا الدولار والإسترليني واليورو ومعظم العملات العالميّة، وقلّدوا التماثيل والآثار والأعمدة والمصكوكات واللوحات المشهورة لأكبر الفنّانين العالميّن، فهل يعجزون عن كتابة سورةٍ أو سورتين، أو آيةٍ أو آيتين؟ ولكنّ الفرق كبيرٌ بين أن تزيّف شيئاً، فيفوت على الناس تزييفُك، ثمّ إذا اكتشفوه بعد ذلك فرضوا بحقّك ما تستحقّه من عقوبة، ولكن مقرونةً في نفوسهم بالتقدير والإعجاب بإتقانك وفنّك، وبين أن تزيّف شيئاً فلا ينال من الآخرين إلّا السخرية والاستهزاء واتّهامَك بالجهل وعدم الجدّية، وهذا كان شأن كلّ من تصدّى لتقليد لغة القرآن الكريم.

النفوذ المحيِّر للبِنية الإيقاعيّة الجديدة لدى العرب

كان الوحي في عيون العرب الذين عاصروا تنزّله بمثابة هبوط طبقٍ طائرٍ ضخمٍ أمام أعينٍ بدويّةٍ بدائيّة، بكلّ تعقيدات هذا الطبق وسحر صنعه وغرابة قطعه الدقيقة المتقَنة. والأعجب من كلّ هذا أنّ العرب قد اعتادوا، كما اعتادت كلّ أمّة، ألّا يتقبّلوا الإيقاع التعبيريّ، شعراً ونثراً، إلّا فيما تعوّدته آذانهم من سبائك وصيغ وتراكيب لغويّةٍ تتردّد هي ذاتها عند الأجيال من الكتّاب والخطباء والشعراء، فلو خرج أحدهم عنها لأحسّوا نشازاً إيقاعيّا يؤذي آذانهم، ثمّ لن يألفوا هذا النشاز إلّا إذا تكرّر مع مرور السنين ليصبح بعد ذلك عضواً معترفاً به في نادي إيقاعاتهم اللغويّة.

ولكنّهم، ويا للدهشة، لم يحسّوا هذا النشاز وهم يواجهون لأوّل مرّة تلك الحشود المكثّفة من المستجدّات اللغويّة والنحويّة والتعبيريّة المتتابعة في القرآن، والتي ستبني في نفوسهم وأسماعهم بالضرورة، من خلال تجمّعاتها المتلاحقة الفريدة، وبسرعةٍ لا سابقة لها، قاموسَها الإيقاعيّ المتميّز الجديد. وعلى العكس، كان ما شدّهم إلى القرآن، منذ اللحظات الأولى لنزوله، إيقاعُ لغته وموسيقا ألفاظه وعباراتِه، الداخليّةُ منها

والخارجيّة، والجديدةُ تماماً على العربيّ، لكنِ المقبولة، بل المستحبّة، بل المحيِّرة حتّى لبلغاء المشركين، وهم الذين لم يملكوا حين سمعوه إلّا أن قالوا على لسان كبيرهم الوليد بن المُغِيرة - الذي رفض أن يُسْلِم مع ذلك - :

والله ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعارِ منّي، ولا أعلَمُ برَجَزِه، ولا بقصيدِهِ منّي، ولا بأشعارِ الجِنّ، واللهِ ما يُشْبهُ الذي يقولُ شيئاً مِن هذا، ووالله إنّ لِقولِه الذي يقولُ حلاوةً، وإنّ عليه لَطُلاوةً، وإنّه لَمُثمرٌ أعلاه مُغْدِقٌ أسفلُه، وإنّه لَيعلو وما يُعلَى، وإنّه لَيَحْطِمُ ما تحتَه [رواه الحاكم في المستدرك، وراجع الروايات والمواقف الأخرى للمشركين من القرآن في عدّة مواضع من كتاب (الجامع في السيرة النبويّة) لسميرة الزايد. المطبعة العلميّة، دمشق: 1995].

رحلتي في آلة الزمان

كم تساءلت فيما بيني وبين نفسي: تُرى هل هناك آلةٌ تستطيع أن تسبح بي في فضاء الزمان لتعبر بي أربعة عشر قرناً إلى الوراء فأستطيع سماع القرآن بأذُن العربيّ الأوّل وكأنّني أسمعه، كما سمعه هو، للمرّة الأولى؟ هل أستطيع التجرّد من ذاكرتي القرآنيّة، بل الإسلاميّة، وأتصوّر أنّني ذلك الجاهليّ الذي عاش عصر الوحي، وسمع القرآن وهو يتنزّل آيةً بعد آية، فتلتقط أذناه التعبير القرآنيّ، وهما ما تزالان عذراوين بريئتين من التعوّد والتكرار والألفة التي تحجب عنهما عبقريّة هذا التعبير وجدّته وتفرّده؟ الله .. أيّة تجربةٍ رائعةٍ عاشها المسلمون الأوائل وهم يتلقّون الوحي من السماء لأوّل مرّة؟! أيّة نشوةٍ أحسّوا بها وهم يسمعون رأي السماء في كلّ أمرٍ يَعرِض لهم في حياتهم، ويستقبلون، بالبثّ المباشر وعلى الهواء، أحكامها التي لا تقبل الجدل أو الشكّ، على ما يجري لهم من أحداثٍ يوميّة، وما يترتّب على هذه الأحكام من تبرئةٍ أو إدانةٍ أو وعدٍ أو وعيدٍ لأناسٍ يعيشون بينهم ويتحرّكون أمامهم ملء السمع والبصر؟! بل كيف تلقّوا حديث السماء وهو يدخل بهم كلّ يومٍ وكلّ ساعةٍ خضمّاً مذهلاً من العوالم التي لا تكاد تتحمّلها عقولهم .

حاولوا أن تستحضروا معي وقْع مثل هذه الآيات التالية على ذهن العربيّ الأوّل وهو يتلقّاها لأوّل مرّة:

- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: 67-69].

قد لا تجدون الآن في هذه الآيات، بعد أربعة عشر قرناً من نزولها، إلّا معانيها المذهلة التي كانت فوق الطاقة الخياليّة للعربيّ الأوّل، وربّما لغير العربيّ أيضاً في تلك المرحلة المبكّرة من الزمن، فكيف إذا كانت هذه المعاني قد نزلت في لبوسٍ جديدٍ وأخّاذ، واحتشدت بالمستجدّات اللغويّة المحيّرة التي لم يعهدها العربيّ من قبل، وبكثافةٍ وتلاحقٍ أكبر من أن يحتملهما خياله؟ فهل لبشرٍ أن يستعيد تلك اللحظات النورانيّة التي فجّرت في نفوس المسلمين الأوائل ما فجّرته، من قوّةٍ وإيمانٍ وثقةٍ وتصميم، بنَوا بها حضارةً غيّرت وجه التاريخ؟

لقد استعنتُ بهذه الآلة البشريّة القاصرة لأستعيد تلك اللحظات، ساحباً قرصَ الذاكرة القرآنيّة من حاسوبِ دماغي، لأدفع مكانه بقرصِ الذاكرة الشعريّة الجاهليّة، ثمّ بقرصِ ذاكرة الحديث النبويّ، وهما المصدران شبه الوحيدَين وشبه المؤكَّدين لتكوين صورةٍ عن اللغة التي كانت توازي أو تواكب زمنيّاً لغةَ القرآن في تلك الحِقبة.

بين المعجم القرآنيّ والمعجم الجاهليّ والمعجم النبويّ

بدهيٌّ، وأنا أحاول استكشاف الفروق اللغويّة والأسلوبيّة بين القرآن الكريم وكلٍّ من الشعر الجاهليّ والحديث النبويّ، أن أركّز على الشعر بشكلٍ خاصّ، ولديّ منه ما يزيد قليلاً على عشرين ألف بيتٍ هي ما أحصته الموسوعات الإلكترونيّة التي بين أيدينا حتّى الآن، وهو ما يَعدل حجم القرآن الكريم تقريباً، أو يزيد، وإن كنّا نعلم أنّ ما ضاع من هذا الشعر مع الزمن ربّما كان أكثر ممّا وصل إلينا. [كان جلّ اعتمادنا في توثيق الشعر الجاهليّ على (الموسوعة الشعريّة) الضوئيّة التي قام عليها المجمّع الثقافيّ في دولة الإمارات، بإصداراتها الأوّل (1998) والثاني (2000) والثالث (2003)، ويجب أن أسجّل هنا أنّني من غير هذه الموسوعة بشكلٍ خاصّ، والموسوعات الضوئيّة الأخرى إلى جانبها بشكلٍ عامّ، ما كان لهذا البحث أن يصل إلى يقينيّته وموضوعيّته]

إنّ وجود شخصيّة لغويّة خاصّة بالشعر الجاهليّ، متميّزةٍ عن لغة الرسول ﷺ الذي ولد وعاش في قلب الحقبة الجاهليّة، وكذلك وجود لغةٍ نبويّةٍ متميّزةٍ تماماً عن لغة كتابٍ ظهر في تلك الحقبة نفسها، وحمله إلينا الرسول نفسه، من غير أن تختلط اللغات الثلاث أدنى اختلاط، ما هو إلّا دليلٌ على موثوقيّة

نصوص اللغات الثلاث كلّها: الجاهليّة، والنبويّة، والقرآنيّة، إذ لم تتسرّب المشارب الأسلوبيّة واللغويّة لأيٍّ من النصوص الثلاثة إلى أيٍّ من النصّين الآخرين. هذا على حين تجد أساليب شعراء الجاهليّة تتشابه وتتداخل بحيث لا يكاد الدارس يفرّق تفريقاً جازماً وقاطعاً بين شاعرٍ وآخر من خلال الأسلوب أو الشخصيّة اللغويّة لكلّ شاعر. حتّى إنْ تميّز أحدهم على الآخرين بقوّةٍ أو ضعفٍ أو جزالةٍ أو رقّة أو بساطةٍ أو غموض، فإنّ ناقداً ما لن يجرؤ أن يقطع في أحكامه بأن هذه القصيدة لا بدّ أن تكون لفلانٍ الشاعر أو فلانٍ الآخر، بالقدر نفسه الذي يجرؤ فيه أحدنا، ناقداً كان أو قارئاً عاديّاً، على القطع في حكمه بأنّ هذا قرآنٌ وذلك ليس قرآناً.

ورغم أنّ لغة الحديث الشريف لا بدّ أن تكون قد تأثّرت بلغة القرآن الكريم، تأثّراً سطحيّاً قد لا يظهر في أكثر من 1% من النصّ النبويّ، فإنّ هذا التأثّر لم يغيّر من الأسلوب المميَّز للحديث الشريف، ولذلك كان من الضروريّ أن أحرص في دراستي على إبراز الفروق الأسلوبيّة واللغويّة بين الحديث الشريف والقرآن الكريم، أينما عثرت عليها، وهي جذريّةٌ وواسعة، لإبرازها وتوجيه أنظار بعض المستشرقين والمشكّكين إليها، ممّن اعتادوا أن يوجّهوا أصابع الريب إلى لغة الوحي وينالوا من سماويّتها ويتّهموا الرسول ﷺ أو غيره من معاصريه بوضعها.

الثورة اللغويّة الجديدة

كيف قابل العرب اللغة الجديدة للقرآن الكريم وقد جاءهم بكلّ شيءٍ إلّا ما تعوّدوه من ألفاظٍ وتراكيب وأبنيةٍ لغويّةٍ، فتركهم في حَيرة، وربّما أصابهم بذهولٍ لم يُفيقوا منه إلّا مع مرور الوقت وتعوّدهم وائتلافهم لهذه اللغة الجديدة؟

إنّ التغيير لم يقتصر على الألفاظ القرآنيّة وحدها، بل تجاوزها إلى علاقات هذه الألفاظ فيما بينها، ومواقعِها في سياقها، واستخداماتها، والعناصر والأعراف اللغويّة والنحويّة والخياليّة الجديدة التي تنتظمها، وكذلك الوحدات اللغويّة الكاملة التي تشكّلت في النهاية من تلك الألفاظ والعلاقات والأعراف. ولو وقفنا عند السوَر واحدةً واحدة، وعرفنا أنّ عدد المواقع القرآنيّة الجديدة، والنقاط المتفرّدة المكتشَفة، يزيد في كلّ سورةٍ على عدد كلمات هذه السّورة، وأنّ في سورةٍ صغيرةٍ، كالفاتحة مثلاً، مكوَّنةٍ من (29 كلمة) ما لا يقلّ عن 58 من هذه "المستجدّات"، وفي سورة الناس (20 كلمة) ما لا يقلّ عن 33، وفي سورة الفلق (23 كلمة) ما لا يقلّ عن 38، وفي الإخلاص (15 كلمة) ما لا يقلّ عن 22، وهكذا في سائر السور، أدركنا حجم الصدمة التي أحدثها القرآن، بشخصيّته

اللغويّة المتفرّدة، في نفوس العرب آنذاك.

من المؤكّد أنّ القرآن لم يأتِ بلغةٍ جديدةٍ منفصلةٍ عن اللغة العربيّة، وهذا موضع إعجازه، لأنّه نزل بالعربيّة وانطلق من قواعدها، ولكنّ تفرّده يأتي من تجاوز هذه اللغة والقفز فوق محدوديّة ألفاظها وتراكيبها وسبائكها وصورها وعلاقاتها اللغويّة، كما يأتي من تطوير أعرافها، ثمّ قواعدها، من غير إلغاء هذه القواعد، وفتحِ الباب أمامها للمزيد من التطوّر والغنى، ومنحِها أبعاداً وآفاقاً واسعةً لم يكن أصحاب هذه اللغة يحلمون بها أبداً.

إنّ إعجاز القرآن لا يكمن في إيجاد لغةٍ من لا شيء، وإلّا لانفصل بنفسه وبتعاليمه عن البشر، أيّاً كانت لغتهم، وإنّما في بناء لغةٍ جديدةٍ على أسس اللغة القديمة نفسها، والتحليق بعد ذلك في فضاءاتٍ واسعةٍ لم تعرفها أو تصل إليها اللغة التقليديّة. ولطالما واجهتُ أثناء محاضراتي في موضوع هذا البحث احتجاجاً من بعض الحضور على إطلاقي تعبير (لغة جديدة) على لغة القرآن، لأنّني أوهِم بهذا أنّها لغةٌ غير عربيّة، واقترحوا أن أجد بديلاً لهذا التعبير، ولكنّ الإعجاز يكمن حقيقةً في هذا التناقض؛ التناقض بين حقيقة "أن تكون لغةً عربيّةً" وبين أن تكون في الوقت نفسه "لغةً جديدةً". قد يبدو هذا غير منطقيّ، ولكنّ منطق المعجزة هو ألّا تقوم على منطق، وإذا استندت المعجزة إلى المنطق توقّفت عن تكون معجزة.

شخصيّة (السورة) القرآنيّة

سبق أن عرفنا أنّ القرآن الكريم قد استخدم الفعل الناقص (كان) بمعنى (إنّ). لقد تكرّر هذا الاستعمال الجديد في القرآن ما لا يقلّ عن 190 مرّة، ومع ذلك فلا وجود لهذا الفعل مطلقاً، بمعناه القرآنيّ الجديد، خارج القرآن حتى اليوم، لا نستثني من ذلك حتّى الحديثَ الشريف. ولكنّ نظام توزيع هذا الفعل على السوَر القرآنيّة أكثر إثارةً للدهشة. فأمرٌ عاديٌّ في سورةٍ صغيرةٍ لا تزيد عن سطرين كسورة (الإخلاص) أن تكون حصّتها، من المرّات الـ 190 التي يتكرّر فيها الفعل، مرّةً واحدةً على الأقلّ، وذلك قولُه تعالى (**ولم يكن له كفواً أحد**). إنّ الفعل المنفيّ هنا (لم يكن) يعني في الحقيقة: (لمْ ولا ولنْ يكون) فلا يقتصر معناه على الزمن الماضي وحده كما هو في استعمالاتنا البشريّة. فماذا نتوقّع أن تكون حِصّةُ سورةٍ كبيرةٍ كالبقرة من هذا الفعل، وهي التي يقارب حجمها 1/ 12 من حجم القرآن بكامله؟ لا شيء! فماذا حول السور الأخرى التي تليها ضخامةً؟ آل عمران مثلاً؟ لا شيء! المائدة؟ لا شيء! الأنعام؟ الأعراف؟ الأنفال؟ التوبة؟ لا شيء، لا شيء! وهكذا حتّى السورة السادسة عشرة، أي ما يقرب من نصف القرآن.. كلّ هذه السوَر تخلو تماماً من هذا

الاستعمال القرآنيّ الجديد والغريب للفعل الناقص (كان).

ولكن، في وسط هذا السهل المنبسط الفسيح، الخالي من أيّ أثرٍ للفعل الجديد، تشرئبّ فجأةً قمّةٌ شاهقةٌ هي سورة (النساء)، وهي الرابعة في الترتيب بين هذه السوَر الكبيرة، فيتكرّر فيها الفعل، وبشكلٍ خارجٍ بشدّة عن القاعدة، 53 مرّة، ولكن ليختفي بعدها تماماً حتّى السورة (17) وهي (الإسراء) فيتكرّر فيها وبشكلٍ مكثّف 27 مرّة، ثمّ يختفي على مدى سبع سورٍ تاليةٍ لتظهر بعدها قمّةٌ جديدةٌ عند السورة (25) وهي (الفرقان) فيتكرّر فيها 11 مرّة، ثمّ يعود فيختفي لسبع سورٍ أخرى حتّى يظهر في السورة (33) وهي (الأحزاب) فيتكرّر 26 مرّةً، ثمّ يتوالى ظهوره في بضع سوَرٍ متأخّرة، ممّا يدعّم ما نذهب إليه في هذه الدراسة من أنّ لكلّ سورةٍ من سور القرآن الكريم "سُوْرُها" المنيع الخاصّ، وشخصيّتها اللغويّة المستقلّة التي تميّزها عن السور الأخرى بحيث يصعب اختلاطُ آيات السور أو تَداخلُها بعضِها ببعض.

والأهمّ من ذلك، في هذه الظاهرة، أنّها بمثابة شهادةٍ توثيقيّةٍ لكلّ سورة تدعّم تسلسلها الحاليّ بين السوَر، وتنفي وقوع أيّ اضطرابٍ أو تعديلٍ بشريٍّ في هذا التسلسل كما هو بين أيدينا، وهو أمرٌ من شأنه أن يرجّح كفّة من قال بسماويّة هذا الترتيب، من ناحية، كما يؤكّد استمراره على الزمن في الصّورة نفسها التي وُجد عليها في عهد النبوّة، من ناحيةٍ أخرى، خلافاً لادّعاءات بعض المستشرقين وتهويماتهم غير الموضوعيّة .

والشخصيّة اللغويّة للسوَر القرآنيّة، كلٍّ على حدة، ظاهرةٌ عجيبةٌ في القرآن، وهي جزءٌ من الهيكل العامّ للشخصيّة اللغويّة للكتاب الكريم. إنّ كلّ سورة، كما يتبيّن من دراستنا التفصيليّة للسور، تنفرد بألفاظٍ ليست في السوَر الأخرى، كما تنفرد بعلاقاتٍ لغويّةٍ جديدةٍ وسبائك وتركيباتٍ وأدواتٍ تقتصر عليها وحدها دون سائر السوَر، هذا فضلاً عن خصوصيّة الإيقاع العامّ والفاصلة القرآنيّة اللذين ينتظمان كلّ سورة، فتكاد تستقلّ بهما عن معظم السوَر الأخرى.

هل تتداخل شخصيّات السوَر؟

كثيراً ما نشعر أثناء استظهار بعض السور، والقصار منها بشكلٍ خاصّ، أنّنا نوشك أن ننزلق عن خطّ السورة فتتحوّل التلاوة بنا إلى سورةٍ أخرى تتّفق معها في حروف فاصلتها وإيقاعها، أو تتقارب إيقاعات بعض سبائكها، كما يمكن أن يحدث معنا مثلاً بين سورتي (المرسلات) و (النازعات) أو بين سورتي (التكوير) و (الانشقاق) أو بين (الأعلى) و (الليل). ومثل هذا الانزلاق والخروج عن خطّ السورة قد يجعلنا نظنّ أنّه إنّما هو تداخلٌ في شخصيّتَي السورتين، وتَماهٍ للحدود بينهما إلى حدّ إمكان ذوبان إحداهما في الأخرى، فتسقط بذلك مقولتنا عن استقلال كلّ سورةٍ بشخصيّتها اللغويّة وتميّزها عن باقي السوَر.

بين سورتيْ (الأعلى) و (الليل):

إنّ مقارنةً سريعةً بين أيّ زوجين من هذه السور ستبرهن لنا كيف تتباعد الشخصيّتان اللغويّتان للسورتين بحيث لا تكادان تلتقيان حتّى بعبارةٍ واحدة. ولنتوقّف على سبيل المثال عند سورتَي (الأعلى) و (الليل) لنرصد جانباً واحداً من المساحة اللغويّة لهذا الثنائيّ، هو جانب التراكيب والتعبيرات، لنتبيّن من

خلاله إلى أيّ مدىً تتشابه أو تتباين الشخصيّتان اللغويّتان للسورتين، رغم تداخل الخطوط الإيقاعيّة بينهما كما ذكرنا.

تتكوّن السورة الأولى من 72 كلمة والثانية من 71 كلمة. ورغم وحدة الفاصلة (إيقاع آخر كلمة من كلّ آية) بينهما، إذ تنتهي فيهما دائماً بالألف، وتكون على وزن (فعْلَى) غالباً، ورغم اشتراكهما في بضعة ألفاظٍ محدودةٍ مثل (خلقَ - الأشقى - يَصلَى - الآخرة - ربّه - الأعلى) فإنّهما، فيما عدا ذلك، لا تشتركان في أيّ تعبيرٍ أو تركيب، فلكلٍّ منهما تعبيراتها وتراكيبها المستقلّة والمختلفة تماماً عن السورة الأخرى. والأغرب من ذلك، بل الأكثر إعجازاً، هو أنّ معظم التراكيب والتعبيرات التي تتكوّن منها كلٌّ من السورتين تقتصر على هذه السورة فلا تشاركها فيها أيّة سورةٍ أخرى في القرآن الكريم.

فبين 26 تركيباً أو تعبيراً هي قوام سورة (الأعلى) يمكن أن نعثر على ما لا يزيد عن أربعةٍ منها في سورٍ أخرى من القرآن وهي (**خَلَقَ فسوَّى - إلّا ما شاءَ اللهُ - فذَكِّرْ - ولا يَحْيَى**) على حين يظلّ 22 منها، أي ما يزيد على 80% من التراكيب والتعبيرات، خاصّةً بهذه السورة وحدها فلا يتكرّر في القرآن أبداً.

أمّا في سورة (الليل) فبين 25 تركيباً وتعبيراً، هي قوام السورة، يمكن أن نعثر على ثلاثة تعبيرات فحسب تشارك فيها سوَراً أخرى من القرآن الكريم، وهي (**فأنذرتُكم - كذّبَ وتولّى - إلّا ابتغاءَ**) ثمّ تنفرد بـ (22) تركيباً أو تعبيراً تشكّل 88% من

تراكيب وتعبيرات السورة، فلا تشاركها بها أيّة سورةٍ أخرى، ولا سورة (الأعلى) طبعاً.

الشخصيّة المتفرّدة للقرآن:

أدركت الفطرة العربيّة، منذ اللحظات الأولى للتنزّل، أنّ كلّ ما يحيط بالقرآن الكريم يوحي بالجِدّة والخصوصيّة، بدءاً باسمه المميَّز (قرآن) الذي لم يعرفه العرب بهذه الصيغة قبل الإسلام، وكأنّه يشير بتفرّد لفظه إلى تفرّد مضمونه، ثم بالاسم الخاصّ والمميَّز لمقدّمته (الفاتحة) الذي لم يشاركه به أيّ كتابٍ آخر، ومروراً باللفظ الخاصّ (سُورة) الذي سُمّيت به أبوابه أو فصوله، وقد اشتُقّ من (السُّوْر) أي الجدار الذي يحيط بالمدينة أو القلعة لحمايتها، فكأنّه إشارةٌ سماويّةٌ مبكّرةٌ إلى حَصانة "سُوَر" القرآن وامتناعها على كلّ من يريد تقليدها أو العثور في جدرانها المستعصية على ثغراتٍ تسمح بالنفاذ إليها، ثمّ اللفظ الخاصّ (آية) الذي يعني (معجزة)، وقد أطلقه تعالى على الوحدات اللغوية الصغيرة الأولى للقرآن، فكان إشارةً سماويّةً أخرى لتأكيد الصفة الإعجازيّة وعنصر التحدّي لكلّ وحدةٍ لغويّةٍ فيه، طالت أو قصُرت، وانتهاءً باللفظ (يتلو) أو (تِلاوة) المختصّ بقراءة القرآن الكريم وكأنّه إشارةٌ توثيقيّةٌ من السماء إلى أنّ الرسول ﷺ ليس أوّل من يقرأ هذه الآيات في الأرض بل هو "تالٍ" أو "ثانٍ" في قراءتها، فجبريل هو الذي قرأ أوّلاً والرسول هو الذي "تلاه" مقتفياً قراءته.

ومن المهمّ أن نؤكّد حقيقةَ أنّ القرآن الكريم هو الوحيد في

تاريخ الكتب في العالم الذي كان ينفرد، وظلّ كذلك إلى الآن، بخصائص عديدةٍ لم يشاركه بها أيّ كتابٍ آخر. والمقارنة هنا ليست بين موضوعات الكتب أو أفكارها أو لغتها أو أساليبها، فكلّ كتابٍ ولا شكّ ينفرد بخصائص تميّزه عن باقي الكتب في هذه الجوانب، ولكنّني أتحدّث عن "جنس" الكتاب بوصفه كتاباً.

لو قارنتم مثلاً بين هذا الكتاب الذي بين أيديكم الآن وبين أيّ كتابٍ آخر في مكتبتكم لما وجدتم ما يميّزه، بوصفه كتاباً، عن الكتب الأخرى، اللهمّ إلّا أن نقارنه مع كتابٍ باللغة الإنكليزيّة، فيمكن أن نقول آنذاك إنّ ما يميّز أحد الكتابين عن الآخر أمران: أنّ أحدهما كُتب بالعربيّة والثاني بالإنكليزيّة، وأنّ الأوّل يُقرأ من اليمين إلى اليسار والآخر يُقرأ من اليسار إلى اليمين أو العكس. هذا هو كلّ الفرق بين الكتابين، ولكن مع الانتباه إلى أنّ أيّاً من الكتابين لا يختصّ بهذه الصفة دون سائر الكتب، لأنّ هناك ملايين الكتب التي كُتبت بالعربيّة غير هذا الكتاب، وملايين الكتب التي كُتبت بالإنكليزيّة غير ذلك الكتاب. ومن هذا المنطلق نجد أنّ للقرآن الكريم خصائص عديدةً لم يشاركه فيها أيُّ كتابٍ آخر، قبله أو بعده. وقد أحصينا منها عشرين خصيصةً منها:

التسميات الخاصّة به وبسوَره وآياته - يُقرأ بأكثر من طريقة، وكلّها منزَلٌ من السماء - اختلاف قراءته عن كتابته (ككتابة ألفاظ (الصلاة) و (الزكاة) و (الحياة) بالواو مع قراءتنا لها بالألف،

وكقراءتنا اللفظ (قَواريرا) في الآية 16 من سورة (الإنسان) من غير الألِف الأخيرة رغم ظهورها في (الكتابة) - اختلاف لفظه عن لفظ أيّ نصٍّ عربيّ آخر (علم التجويد) – اختلاف كتابته عن كتابتنا لأيّ نصٍّ عربيٍّ آخر – اشتراط السماع في توثيقه (فلا بدّ من الاعتماد، إضافةً إلى علم التجويد، على السماع والرواية الشفويّة المتّصلة من تلميذٍ عن شيخٍ حتى تصل السلسلة إلى النبيّ نفسه) - التغنّي بقراءته (تَغَنَّوا بالقرآن، ليس منّا مَن لم يتغنّ بالقرآن [الذهبي]) - اختلاف أسلوبه كلّياً عن أسلوب الذي حمله إلينا (وهو النبيّ) - يحفظه الملايين غيباً من الغلاف إلى الغلاف – معظم حفَظته ممّن لا يتكلّمون لغته: (أكثر من يحفظونه عن ظهر قلبٍ هم ممّن لا يتكلّمون العربيّة ولا يفهمونها – العرب لا يشكّلون أكثر من 20 % من المسلمين في العالم) – توثّق نصوصه ملايين المرّات يوميّاً (تتكرّر تلاوته جهراً، ومن ثَمّ توثيقُ نصوصه، بشكلٍ جماعيٍّ وأمام جماهير متفرّقةٍ ومتباعدة المسافات من المصلّين ثلاث مرّاتٍ كلّ يوم: الفجر والمغرب والعِشاء، فضلاً عن صلاة الجمعة وصلاتَي الفِطر والأضحى، وذلك في ملايين المساجد وعلى مساحة الكرة الأرضيّة، وعلى مدى أربعة عشر قرناً منذ نزول الأمر بالصلاة إلى اليوم، فإذا أخطأ الإمام في قراءة لفظٍ أو حرفٍ من الكتاب؛ بادر عشراتٌ من المصلّين خلفه إلى تنبيهه وتصحيح خطئه، فلا يُحتمل مع هذا النظام التوثيقيّ العجيب والمكثّف دخولُ أو سقوطُ أو تحريفُ أيّ لفظٍ أو عبارةٍ أو قراءةٍ منه على توالي القرون وتنائي المسافات) – **أحدثَ أوسعَ ثورةٍ علميّةٍ في زمنٍ قياسيّ** (لم يحدث أن حقّق

كتابٌ واحد، غير القرآن، ثورةً أدبيّةً وعلميّةً وفكريّةً ولغويّةً في كلّ الاتجاهات، وفي عقودٍ قليلةٍ من السنين، وفي جزيرةٍ أمّيةٍ منعزلةٍ لم تكن تعرف قبله إلّا كتاباً واحداً، هو الكتاب المقدّس).

السبيكة اللغويّة الجديدة:

عرف العرب ظاهرةً لغويّةً ليست غريبةً على اللغات الأخرى، وهي أنّ قاموساً من الأبنية اللغويّة كان متداوَلاً ومتبادَلاً بين الشعراء الجاهليّين يستمدّون منه مادّتهم الشعريّة للتعبير عن أفكارهم ثمّ لا يكادون يخرجون عنها، بحيث بات لهم منها قوالب ثابتةٌ تُكوّن أساس النسيج اللغويّ لمعظم أشعارهم. ونستطيع أن نعيد أكثر ما بين أيدينا من مادّة الشعر الجاهليّ إلى بضع عشراتٍ من القوالب اللغويّة الأساسيّةٍ كانت هي المتداولة في السوق الشعريّة حتّى نزول القرآن الكريم، وتشكّل ما يمكن أن نسمّيه البِنية التحتيّة للبناء اللغويّ الشعريّ. واستمرّ كثيرٌ من هذه القوالب بعد القرآن، وما يزال بعضها حيّاً عند كثيرٍ من الشعراء، مع اختلافٍ في نسبة استخدامها لدى كلٍّ منهم. وكانت هذه القوالب بمثابة وحداتٍ أو سبائك لغويّةٍ أوّليّةٍ يقوم عليها البناء اللغويّ العامّ للقصيدة أو النصّ الأدبيّ، وكان من النادر للشاعر أو الكاتب أو الخطيب أن يخرج عنها أو يضيف إليها سبيكةً جديدةً تُغْني البناء اللغويّ القديم.

لقد كانت هذه السبائك عند الجاهليّين أشبه بالمقصوصات الكرتونيّة (جيغ سو) أو بورق اللعب، فهي أمامهم قطعٌ جاهزةٌ للّعب بها وتشكيل مجسّماتٍ لغويّةٍ، قد تكون بأعيننا جديدةً،

وهي القصائد، ولكنّها في حقيقتها قديمةٌ بقوالبها أو الموادّ الأوّليّة التي صُنعت منها وبُنيت أشكالها الجديدة عليها. وهذه نماذج منها، وقد اخترتها من صدور مطالع القصائد فحسب، وفي ذلك ما يكفي دلالةً على سعة حجم هذه الظاهرة في شعرنا العربيّ: **ومَن يَكُ ذا.. وإنّي امرُؤٌ إنْ.. ألا هل أتى عنّا.. ألا ليتَ شِعري هل.. ألا انعِم صباحاً أيُّها الربع.. خليليَّ مُرّا بي.. أمِنْ آلِ أسماءَ الطُلولُ الدوارسُ.. يا صاحبيَّ تَلَوَّما.. ودِّعْ أُمامَةَ إنّ.. أَهاجَكَ مِن أسماءَ رَسْمُ المَنازل.. سَما لكَ شوقٌ بَعدما كان.. لِمَنْ طَلَلٌ بينَ الجَديّةِ..**

لقد قلبتْ لغةُ الوحي هذه الموازين جميعاً، وفَتّتت السبائكَ المتوارثة، وخرجت على النسيج اللغويّ التقليديّ لتوجِد لنفسها نسيجَها الخاصّ، وليكون لها سبائكها اللغويّة الجديدة التي ستُحْدث هزّةً في سجلّ اللغة الأدبيّة عند العرب. ولن تقتصر هذه السبائك الجديدة على جزءٍ من المساحة اللغويّة لآيات القرآن الكريم، بل ستغطّي هذه المساحة تماماً بحيث تستطيع أن تميّز قرآنيّتها من خلال خزعةٍ عشوائيّةٍ واحدةٍ تتناولها من أيّة جملةٍ أو سبيكةٍ من القرآن الكريم، بل من خلال ما هو أصغر حجماً من السبيكة، كالتعبير أو التركيب.

معظم سبائك القرآن لا يتكرّر فيه:

إنّ "النكهة" المميَّزة جدّاً للسبائك القرآنيّة من شأنها أن تجعلنا نظنّ أنّ تكرارها في القرآن بكثرةٍ، رغم جِدّتها واختلافها جميعاً عن السبائك العربيّة المعروفة، هو السبب في سهولة

تمييزنا لها وسرعة إدراكنا لقرآنيّتها. والعجيب أنّ ما لا يتكرّر من السبائك القرآنيّة، رغم وضوح ظاهرة التكرار هذه، أكثر بكثيرٍ ممّا يتكرّر منها. فمعظم السبائك يرِدُ في القرآن لمرّةٍ واحدةٍ لا أكثر، وتظلّ له، مع ذلك، نكهته المميّزة الواضحة. أمّا سبائكنا البشريّة، شعراً كانت أو نثراً، فمن الصعب تمييزها واستقرار شكلها وبنائها في أذهاننا وذواكرنا إذا لم تتكرّر مرّاتٍ عديدةً، بحيث تأْلفها نفوسنا وتتعوّدها مسامعنا. إنّها خصيصةٌ عجيبةٌ أخرى من خصائص لغة الكتاب الحكيم: ائتلافُنا لسبائكه التي لا تتكرّر أبداً.

وقد يقال: ولماذا تخصّ القرآن وحده بالسبائك المتفرّدة، فلكلّ كاتبٍ سبائكه الخاصّة أيضاً، ولها خصائصها وبناؤها المتميّز؟ هذا صحيحٌ إلى حدٍّ ما، ولكن ليس إلى كلّ حدّ. إنّ الأساليب البشريّة، على اختلافها، لن تساعدنا دائماً في تمييز أصحابها أحدها عن الآخر، مهما تباعدوا في الزمان والمكان. وكثيراً ما يتقارب كاتبان في أسلوبيهما، أو أكثر من كاتبين، بحيث يختلط علينا الأمر. وتبرز هذه الحقيقة واضحةً لنا إذا اكتفينا بجملةٍ واحدةٍ لكلٍّ منهم فقارنّاها مع جمل الكتّاب الآخرين. فمن منّا يستطيع أن ينظر في السبائك التالية، التي جمعناها بشكلٍ عشوائيٍّ وسريعٍ من أدباء مختلفين، قدماء ومعاصرين، فيخبرنا، مهما أنعم النظر فيها: أيّها للمعرّي، وأيّها لابن المقفّع، وأيّها لابن حزم، وأيّها لطه حسين، وأيّها لمصطفى صادق الرافعيّ:

وأمّا الكتابُ فجمَعَ حِكمةً ولهواً - وإنّ هذا لَيُولِّدُ من الحُزنِ والأسفِ غيرَ قليلٍ - يبتدعون أساليبَ ومناهجَ في نظمِ الكلام - لا يخافُ على ولدِه من اليُتْم - ولكنّ الفنَّ البيانيَّ يرتفعُ على ذلك.

إنّ من المستحيل على أيٍّ منّا، مهما امتلك من براعةٍ أدبيّةٍ ونفاذ بصيرةٍ نقديّة، أن يضع الاسم الصحيح من أسماء هؤلاء الكتّاب الخمسة أمام الجملة الصحيحة، إلّا أن يقع ذلك له مصادفةً، ولكنّ دخول آيةٍ قرآنيّةٍ واحدة، أيّة آيةٍ، طالت أو قصرت، بين هذه الجمل البشريّة الخمس، على اختلاف عصورها وتباعد مدارس أصحابها الأدبيّة، سيجعل من السهل، للحاذق وللمبتدئ على السواء، أن يشير إليها حالاً بإصبعه ليقول، وبثقةٍ متناهية: هذه آية. [أصحاب هذه الجمل هم على الترتيب: ابن المقفّع (كليلة ودمنة، ص68)، وابن حزم (طوق الحمامة، ص216)، وطه حسين (في الأدب الجاهليّ، ص315)، والمعرّي (رسائل أبي العلاء المعرّي، ج3، ص587)، والرافعيّ (وحي القلم، ج1، ص16)].

كثافة السبائك القرآنيّة المتفرّدة:

إنّ السبائك القرآنيّة التي لا تتكرّر أكثرُ من أن تُحصى، وما أسهل أن نضع أيدينا على عددٍ كبيرٍ منها في كلّ صفحةٍ من صفحات الكتاب الكريم. ولكي تكون أحكامنا موضوعيّةً وغير انتقائيّة، نتوقّف عند أوّل صفحةٍ كاملةٍ من القرآن، وهي تضمّ، في معظم طبعات المصحف المتداولة، الآيات 6 - 16 من

سورة (البقرة)، لنتبيّن كثافة السبائك القرآنيّة وتنوّعها فيها. ومن السهل أن نعثر، في هذه الصفحة وحدها، على ثلاثٍ وعشرين سبيكةً على الأقلّ، لكلٍّ منها بناءٌ مختلفٌ ومستقلٌّ، ليس عن السبائك العربيّة، الشعريّة والنثريّة، أو عن سبائك الحديث النبويّ، فحسب، بل عن السبائك القرآنيّة الأخرى في الصفحة ذاتها أيضاً. وسنرى أنّها، إلى جانب تفرّدها وتميّزها، وعلى الرغم من التأثير اللغويّ للقرآن في لغتنا واجتذاب أسلوبه الرفيع لأقلام كتّابنا، ظلّ معظمها حتّى اليوم خاصّاً بالتعبير القرآنيّ دون التعبير البشريّ، ولن نجده في أيّة لغةٍ أدبيّةٍ أخرى على مرّ العصور:

1 - ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾

2 - ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

3 - ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا﴾

4 - ﴿وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ﴾

5 - ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾

6 - ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾

7 - ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (تكرار للسبيكة رقم 2)

8 - ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ﴾

9 - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

10 - ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ﴾

11 - ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ﴾

12 - ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾

13 - ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾

14 - ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾

15 - ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ (تكرار للسبيكة رقم 11)

16 - ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (تكرار للسبيكة رقم 12)

17 - ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾

18 - ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ﴾

19 - ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ (تكرار للسبيكة رقم 10)

20 - ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾

21 - ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

22 - ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾

23 - ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾

أربع سبائك فقط من هذه السبائك تكرّرت مرّتين كما نلاحظ، ولكنّ السبائك الثلاث والعشرين جميعاً هي سبائك قرآنيّةٌ لا تشبه أيّاً من سبائكنا اللغويّة، أو سبائك الحديث النبويّ، وبالإمكان تمييزها بسهولةٍ عن أيّة سبيكةٍ بشريّة، شعريّةٍ أو نثريّة، لو حاولنا أن نخلطها معها. فكيف واجه العرب الجاهليّون هذه العاصفة التعبيريّة التي هبّت عليهم من مكّة؟ وفي أيّ موقعٍ وقفت لغة القرآن الكريم بإزاء تلك المؤسّسة اللغويّة الضخمةً التي ازدهرت قبل الإسلام؟ كيف ستكون ردّة فعل

العرب، الذين اعتادوا أن يبيعوا ويشتروا في سوقٍ لغويّةٍ لا تعرف إلّا بضع عشراتٍ، أو مئاتٍ، من السبائك الأساسيّة التقليديّة المتكرّرة، وهم يواجهون على حين غرّةٍ كتاباً مرصوصاً بآلاف السبائك الجديدة التي لم يعرفها شعرهم ولا نثرهم من قبل، ثمّ لن يَعرفاها من بَعد؟

طبيعة السبيكة القرآنيّة وتركيبتها:

إنّ التفرّد القرآنيّ في كلا السبيكة واللفظة، ثمّ في علاقات الألفاظ، وعلاقات التراكيب والعبارات بعضها ببعض، يبني لغةً مميّزةً يصعب حتّى على القارئ العاديّ أن يخلط بينها وبين الأساليب البشريّة المعروفة. وما يجعلنا نميّز بين الجملة القرآنيّة والجملة البشرية، ليس هو بالضرورة الألفاظَ القرآنيّة المتفرّدة وحدها، ولا التركيبات التي قامت عليها، ولا الإيقاع البلاغيّ المتناسق الذي يلفّها، ولا الصور القرآنيّة الجديدة التي أدهشتنا، ولا المعاني الإلهيّة الجادّة المتميّزة، بحكمتها ووقارها وأزليّتها واستعلائها عن معاني البشر وصفاتهم، ولا الخطاب السماويّ المتفرّد، القادر كلّ القدرة، والواثق كلّ الثقة، والمتمكّن والمُخبِر والآمر والناهي والمتعالي عن الروح الإنسانيّة الضعيفة، ليس كلّ هذا فحسب.. إنّ هناك، إلى جانب ذلك كلّه، السَبْكَ الذي يجمع بين كلّ هذه العناصر، فيضمّ بعضَها إلى بعض، ليخرج منها بوحداتٍ لغويّةٍ صغيرة، قد تكوّن فيما بينها جملةً أو سبيكة، بحيث إنّها لو اختلطت مع آلاف الجمل أو السبائك البشريّة لأعربت عن نفسها، ونَطق بقرآنيّتها بناؤها وخصوصيّةُ ألفاظها وعباراتها وبلاغتها وإيقاعها.

إنّ أدنى تغييرٍ في السبيكة القرآنيّة يؤدّي إلى فقدانها للوزن. وللسبائك القرآنيّة أوزانٌ بعدد هذه السبائك، وهذه الأوزان لا تقوم على الحركات والسكون، كما هو الشأن في عروض الشعر، ولا على قواعدنا البشريّة في تنسيق الحروف وتجانسها، فكم خرجت عليها هذه السبائك فلم تزدد إلّا سلاسةً وإتقاناً. فتلك ستّ ميماتٍ تتوالى في الآية ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 114] - تُلفظ تجويديّاً: ـأظلمُ مِمْ مَمْ مَـ - وثماني ميماتٍ تتوالى في الآية ﴿وَعَلَىٰٓ أُمَمٖ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ [هود: 48] - تُلفظ تجويديّاً: أمَمِمْ مِمْ مَمْ مَـ - فلا نشعر مع هذا التوالي بما نشعر به من ثِقلٍ وتعثّرٍ لو وقع مثله في لغتنا البشريّة. إنّ "الوزن" أو الإيقاع القرآنيّ تُشارك في تكوينه عواملُ وعناصر خفيّةٌ أخرى أشعر أنّ أدواتنا النقديّة ما تزال عاجزةً عن تقديم أيّة مساعدةٍ لوضع أيدينا عليها وتحديدها. ويؤكّد هذه الحقيقة عددٌ من المفكّرين الغربييّن الذين لامسوا القرآن في دراستهم فوصفوا انعكاساته الغريبة في نفوسهم، حتّى إن لم يفقهوا معانيه، كما نجد في حديث الكاتب الأمريكي جيفري لانج عنهم:

ليس من الضروريّ أن يكون الإنسان مسلماً لكي يشعر بهذه القوّة الخارقة للقرآن؛ ذلك أنّ الكثير منهم اختار الإسلام بَعدَ، وبسببِ، مثلِ هذه الملاحظات. أيضاً، كثيرٌ من دارسي الإسلام من غير المسلمين، قرّروا ذلك. عالم اللغة العربيّة البريطاني، آرثر جيه آربري، تذكّر كيف أنّ القرآن سانده في فترةٍ عصيبةٍ من حياته. قال: إنّ استماعه إلى القرآن وهو يرتّل باللغة العربيّة كان بالنسبة له كاستماعه إلى نبضات قلبه. وفريدريك ديني، كاتبٌ غير

مسلم، **تذكّر "التجربة الرائعة المقلقة" التي يمارسها الإنسان أحياناً وهو يقرأ القرآن، عندما يبدأ القارئ في الشعور "بحضور غامض، ومخيفٍ أحياناً"، فبدلاً من قراءة القرآن، يبدأ القارئ يشعر أنّ "القرآن هو الذي يَقرأ القارئ"**. [حتّى الملائكة تسأل، جيفري لانج. ترجمة زين نجاتي. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة: 2002. ص 195].

ولكن من المهمّ أن نتنبّه إلى حقيقةٍ قد تغيب عن بالنا، في زحمة انشغالنا باكتشاف الطبيعة الجديدة للنسيج اللغويّ القرآنيّ، وهي أنّ هذا النسيج الجديد ظلّ جديداً حتّى يومنا هذا. إنّ كلّ جديدٍ يخطّه قلمٌ أو ينطق به لسانٌ بشريٌّ اليوم، لن يلبث أن يصبح قديماً مع الغد. فالسبيكة اللغويّة التي قدّمها الشاعر الجاهليّ الأوّل كانت جديدةً حين جاء بها لأوّل مرّة، ولكنّها لم تلبث أن غدت قديمةً متكرّرةً حين تناولها الشاعر اللاحق ثمّ من لحق به، وهكذا.. أمّا السبائك القرآنيّة فقد أمسك معظمُها بالزمن وتوقّف عند اللحظة التي تنزّلَ بها فلم يسمح لأحدٍ بتكراره بعد ذلك أبداً.

وإذا كان للغة الحديث الشريف، بأسلوبَيها المتميّزين والمتفاوتين أيضاً: القدسيّ والنبويّ، ما يميّزها ويرتفع بمستواها إلى درجةٍ غير عاديّةٍ من البلاغة والفصاحة والجمال، فإنّها تظلّ محتفظةً بخصائصها البشريّة المستقلّة التي تميّزها بوضوحٍ لا لَبس فيه عن الإعجاز اللغويّ الإلهيّ. تصوّروا لو أنّ مديرٍ أحد المصانع جمع عمّاله وألقى فيهم خطاباً، وأراد أن يقول لهم في

ثنايا الخطاب إنّ كلّاً منهم يتحمّل مسؤوليّة أخطائه، وفضّل، في هذا المعنى، أن يستفيد من العبارة القرآنيّة السائرة:

- ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: 18]

ولكنّه لم يشأ أن يستخدم العبارة القرآنيّة نفسها فحاول أن يُلبسها ألفاظاً من عنده من غير أن يغيّر بناءها اللغويّ، وهكذا اكتفى بأن أحلّ اللفظ (يحمل) ومشتقّاته محلّ اللفظ القرآنيّ (يَزِر)، فقال:

- (ولا يَحملُ حاملةٌ حِمْلَ أخرى)

إنّه تجاوز حدود الاقتباس أو التضمين حين استعار السبيكة القرآنيّة شديدة التميّز، فأبقى عليها كما هي، ولكنّه ألبسها ألفاظه البشريّة مكتفياً بإحلال لفظٍ آخر محلّ اللفظ القرآنيّ، له المعنى القرآنيّ نفسه والوزن نفسه، فخرج، مع ذلك، بهذا المخلوق اللغويّ المشوّه والمثير للسخرية والإشفاق اللذين أكاد أراهما بوضوح على وجوهكم وأنتم تقرأون عبارة مدير المصنع.

فأْتُوا بسورةٍ مثلِه:

وهكذا ضحك آباؤنا في الماضي، ونضحك اليوم، ساخرين ومشفقين، لتلك المحاولات الساذجة والمستمرّة لأناسٍ يريدون أن ينالوا من القرآن ومن الإسلام، فيحاولوا وضع هياكل لغويّةٍ مشوّهةٍ يدّعون أنّها سوَرٌ قرآنيّة. فمهما حاول المزوّرون أن يُدخلوا في القرآن ما ليس منه، أو أن يصوغوا جملةً أو عبارةً، أو يضعوا ما يدّعون أنّه سورةٌ، فسوف تفضحهم خصوصيّة القرآن

اللفظيّة والتركيبيّة، وسبائكه المميّزة، تماماً كما تفضح اليوم اختبارات الـ DNA في مخابر الأطبّاء من يحاول نسبة ولدٍ إلى غير أبيه، أو فعلٍ إلى غير فاعله. إنّ جسم لغة القرآن سيرفض أيّ دمٍ لغويٍّ جديدٍ نحاول أن نحقنه فيه، والزمرة الدمويّة المخالفة ستفسد باقتحامها كلّ ما يحيط بها من أنسجة.

السبيكة النبويّة:

ولماذا نذهب بعيداً جدّاً؟ هذا حديث رسول الله ﷺ أمامنا، فهل ينطبق على لغته ما ينطبق على لغة السماء؟ هل سنجد أمامنا نصّاً مثيراً للسخرية والإشفاق لو أجرينا عليه التجربة السابقة نفسها؟ وكيف نتأكّد من أنّ لغة النبيّ الكريم، على عظمتها وتفوّقها وتفرّد أسلوبها، هي أيضاً، لغةٌ بشريّةٌ قابلةٌ للاختراق أو التزوير؟ مرّةً أخرى، ودفعاً لمنزلق "الانتقائيّة" في دراستنا، وعملاً بمبدأ (الأوائل) الذي أخذنا به في دراستنا حين درسنا سبائك الصفحة الأولى من القرآن الكريم، ثمّ حين اخترنا لتطبيقاتنا العمليّة، في هذا القسم من الكتاب، إحدى أوائل السوَر التي تنزّلت من القرآن (المدّثر)، نأتي إلى مخبرنا اللغوي بحديثٍ تفتتح به واحدةٌ من أشهر مجموعات الحديث الشريف، وهي (رياض الصالحين) للإمام النوويّ، لنتبيّن الفرق، الذي لا يمكن أن يَخفَى على ذي نظر، بين اللغة الإلهيّة واللغة النبويّة:

- عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال: سمعت رسولَ الله ﷺ يقول: إنّما الأعمالُ بالنيّات، وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى اللهِ ورسولِه فهجرتُه إلى اللهِ ورسولِه، ومن

كانت هجرتُه لِدنيا يُصيبُها أو امرأةٍ يَنكِحُها فهِجرتُه إلى ما هاجرَ إليه [متّفقٌ عليه].

إنّ من السهل لأيٍّ منّا أن يبني لنفسه عبارته الخاصّة مستخدماً أرضيّة السبيكة النبويّة الواردة في الحديث الأوّل "**إنّما الأعمالُ بالنيّات**" فيقول مثلاً: (إنّما العبرة بالنتائج) من غير أن يخشى الخروج على أعرافنا اللغويّة البشريّة أو أن يجد نفسه في موضع سُخريّةٍ أو اعتراضٍ من أحد. ومن السهل أن تبني جملتك البشريّة الخاصّة على أساس السبيكة النبويّة التي تلي الأولى "**وإنّما لكلّ امرئٍ ما نوى**" فتقول مثلاً: (وإنّما لكلّ متسابقٍ ما أحرز) من غير أن تستشعر حرجاً لغويّاً، أو أن تخشى تعليقاً ساخراً من أحد. ومن السهل أيضاً أن تبني بلغتك العاديّة جملةً على نسَق بقيّة هذا الحديث، فتقول: (فمن كانت غايته الجهاد فأجره عظيم، ومن كانت غايته مالاً يربحه أو شهرةً ينالها فأجره هو ما اختار لنفسه) من غير أن تثير السخريّة أو النفور عند من يقرأونك أو يسمعونك..

والحقّ أنّ لغة الحديث النبويّ قد اختُرِقت بآلاف الأحاديث الموضوعة، ولكن من غير أن يعني هذا أنّ علماءنا عجزوا عن ملاحقة تلك الأحاديث الدخيلة المنحولة. إنّهم استطاعوا، بمناهجهم التوثيقيّة المتفوّقة، أن يميّزوا، وبشكلٍ شبه مؤكّدٍ ونهائيّ، بين الحديث الصحيح والحديث الموضوع. [نبّه الرسول ﷺ في أحاديث عدّة إلى احتمال وقوع هذا الاختراق، ووضع للمسلمين أكثر من قاعدةٍ لتمييز أقواله عمّا يمكن أن يضعه الناحلون والمُغْرضون،

كما في الحديث النبويّ: "إذا سمعتم الحديثَ عنّي تعرفُه قلوبُكم وتلينُ له أشعارُكم وأبشارُكم وترَون أنّه منكم قريب؛ فأنا أوْلاكم به، وإذا سمعتم الحديث عنّي تُنكره قلوبُكم وتنفرُ منه أشعارُكم وأبشارُكم (أي يكاد يظهر نفورُكم منه على شَعر جسدِكم وبَشَرَتِكم) وترَون أنّه منكم بعيد؛ فأنا أبعَدُكم منه" رواه أحمد] ثمّ إنّ علينا أن نتذكّر أنّ ثلاث رواياتٍ لحديثٍ صحيحٍ واحدٍ؛ لا بدّ أن تعود اثنتان منها على الأقلّ إلى أصولٍ غير نبويّةٍ اقترحها أو تصوّرها الرواة، من غير أن يشكّل ذلك ثلماً أو اختلالاً في سياق اللغة النبويّة.

جِدّة التركيب والتعبير:

بدهيٌّ، حين ندرس التراكيب والتعبيرات والسبائك والعلاقات اللغويّة في القرآن الكريم، أن نواجه أحياناً بعض الصعوبات في رسم حدودٍ واضحةٍ بين هذه العناصر، ولكنّنا سنحاول ألّا نتجاوز تحت هذا العنوان المِنطقة التي يتقاسمها التعبير والتركيب، فلا نتراجع مثلاً إلى منطقة اللفظ المفرد المجرّد لأنّ هذه المنطقة مختصّةٌ بالألفاظ والمصطلحات وحدها، ولا نتقدّم إلى منطقة الألفاظ الأربعة فما فوق لأنّنا سنكون معرَّضين بذلك لأن نرتع في تخوم السبيكة، وهي الوحدة اللغويّة الكبرى التي يمكن أن تحتوي أو يدخل تحتها التركيب والتعبير، ولكنها لا تدخل تحتهما أو يحتويانها. وعلى هذا فلن نرصد هنا إلّا الصيَغ التي تتألّف على الأغلب من لفظين أو ثلاثة ألفاظٍ، ممّا يقوم على علاقةٍ لغويّةٍ أو نحويّةٍ أو بيانيّةٍ جديدةٍ لم تعرفها اللغة العربيّة قبل القرآن الكريم. ولكنْ كثيراً ما تتداخل الحدود بين التركيب

والتعبير بحيث نواجه صعوبةً في التفريق بينهما، ولهذا اصطلحنا في هذا البحث على أن يكون (التركيب) هو ما لا يقدّم لنا معنىً كاملاً، وأغلب مادّته هو الأدوات والحروف، على حين يقدّم (التعبير) معنى كاملاً أو شبه كامل، وأغلب مادّته هو الأسماء أو الأفعال.

التركيب القرآنيّ:

لقد حمل القرآن الكريم إلى العرب دفعةً واحدة، وخلال السنوات القليلة التي استغرقها تنزّلُه، آلافاً من التراكيب والتعبيرات الجديدة التي امتلأت بها سوَرُه القصيرة والطويلة على حدٍّ سواء، والتي دخل كثيرٌ منها في معاجم لغتهم الأدبيّة واليوميّة، وإنّ ظلّ معظمها مقتصراً على القرآن وحده فلم يسمح تفرّدُه وتميّزُه الشديدان بالتسرّب إلى تلك المعاجم.

قد نقرأ آيات الله تعالى يوميّاً، وقد تمرّ بنا عشراتٌ من هذه التراكيب في كلّ قراءة، ثمّ لا نتوقّف عندها أبداً أو نرى فيها ما هو غير عاديٍّ أو غير مفهوم، ذلك لأنّنا ألِفناها واعتدنا ألّا نتوقّع في القرآن إلّا مثلها. ولكن لو توقّفنا عندها مَليّاً، وفرّغنا ذواكرنا من أُلفتها للغة القرآن الكريم، وعُدنا بها إلى لغتنا العاديّة، الأدبيّة أو اليوميّة، حتّى كأنّنا لم نعرف لغةً غيرها، عندها سنجد أنفسنا وجهاً لوجهٍ أمام لغةٍ جديدةٍ كلّياً، لا علاقة لها بلغتنا البشريّة، رغم أنّها قامت على قواعدها. اقرأوا معي التراكيب التالية، ومعظمها ممّا يتردّد بكثرةٍ في القرآن، وسوف تتبيّنون بنظرةٍ سريعةٍ مدى تميّزها عن تراكيبنا البشريّة التي اقترحتها بإزائها:

- ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى﴾: مَن الذي
- ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾: هل يُنتظَر منكم
- ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُواْ﴾: فما داموا عاجزين عن أن يأتوا
- ﴿بَعْدَ إِذْ﴾: بعد أن
- ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا﴾: وهكذا جعلنا
- ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا﴾: وكلٌّ واحدٍ منهم
- ﴿إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا﴾: كاد أن يُضِلّنا
- ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ﴾: حتّى إن جئتُك
- ﴿فَلَمَّآ أَن جَآءَ﴾: فلمّا جاء
- ﴿إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾: إنّنا سنغلبهم
- ﴿فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ﴾: آمنين هنا
- ﴿قَلِيلًا مَّا﴾: ما أقلّ

التراكيب والتعبيرات الجديدة في (المدّثّر):

رغم محدوديّة حضور التركيب في نصوصنا عامّةً، لأنّه يعتمد بشكلٍ أساسيٍّ على الأدوات كما ذكرنا، فبإمكاننا العثور في سورة (المدّثّر) على التراكيب الجديدة الاثني عشر التالية:

فذلكَ يومَئذٍ - كلّا إنّهُ - فقُتِل كيفَ - ثمّ قُتِلَ كيف - إنْ هذا إلّا - وما أدراكَ ما - كذلكَ يُضِلُّ - كلّا والقمر - لم نَكُ مِن - فما لَهُمْ عن - كلّا بل لا - إلّا أنْ يشاء

أمّا عن التعبيرات الجديدة في السورة فربّما كان من الأولى أن نسأل أنفسنا أوّلاً: وهل هناك أصلاً أيّ تعبيرٍ غير جديدٍ في السورة؟ تتألّف (المدّثّر) من 56 آيةً في أقلّ من صفحتين، ومعظم آياتها (ثلاثون آية على الأقلّ) لا تتجاوز كلمتين أو ثلاثاً، ومع ذلك فإنّ بإمكاننا أن نحصي في السورة ما لا يقلّ عن 65 تعبيراً قرآنيّاً جديداً. هل تصوّرتم حجم الكتلة التعبيريّة الجديدة في السورة؟ 65 تعبيراً جديداً يضاف إليها 12 تركيباً جديداً، كلّها تَرد في 56 آيةً لا يزيد عدد ألفاظ معظمها على كلمتين أو ثلاث، ممّا يعني أنّ التعبيرات الجديدة لم تترك مساحةً تُذكر، إن تركت أيّ شيءٍ على الإطلاق، لتعبيراتٍ سبق أن عرفها العرب قبل القرآن. وما هو أبعد وأغرب وأكثر إثارةً من ذلك، أنّ اثنين وخمسين من هذه التعبيرات (52 من أصل 65) تقتصر على (المدّثّر) وحدها ولا تتكرّر في أيّةٍ سورةٍ أخرى، وهذه الحقيقة تؤكّد لنا من جديد، ليس جدّة اللغة القرآنيّة فحسب، بل تفرّد كلّ سورةٍ بشخصيّتها اللغويّة المستقلّة أيضاً، وهو أمرٌ سنتوقّف عنده باستمرار عند دراستنا لقصار السور في القسم الثاني من الكتاب. وتلك هي التعبيرات الجديدة في السورة:

يا أيّها المدّثّر - قُمْ فأنذِرْ - وربَّكَ فكبِّرْ - وثيابَك فطهِّرْ - والرُجزَ فاهجُرْ - ولا تَمْنُنْ تَستكثِر - ولربِّكَ فاصبِرْ - فإذا نُقِرَ في الناقور - يومٌ عسير - على الكافرِين غَيْرُ يسير - ذَرني ومَن خَلقْتُ وحيدا - وجَعلتُ له مالاً - مالاً ممدوداً - بنين شُهوداً - مهّدتُ له تمهيداً - يَطمَعُ أنْ أزيد - كان لآياتِنا عنيداً - سأُرهقُه صَعوداً - فَكَّرَ وقَدَّر - فقُتِل كيفَ قَدَّر - عَبَسَ وبَسَر - أدْبَرَ

واستَكبر - سِحْرٌ يُؤثَر - سأُصْلِيه سَقَر - لا تُبْقي ولا تَذَر - لَوّاحَةٌ للبَشَر - أصحابَ النار - وما جَعَلْنا عِدّتَهم - فِتنةً للّذين كَفَروا - الذين أوتوا الكتابَ - يزدادَ الذين آمَنوا إيماناً - في قلوبِهم مرضٌ - أرادَ اللهُ بهذا مَثَلاً - يُضِلُّ اللهُ مَن يَشاء - ويَهدي مَن يشاء - جُنودَ ربِّك - ذكرَى للبشَر - والقمرِ - والليلِ إذْ أدْبَر - والصبحِ إذا أَسفَر - لَإحدى الكُبَر - نذيراً للبشَر - أنْ يتقدّمَ أو يتأخّر - بما كَسَبَتْ رَهينة - أصحابَ اليمين - في جَنّاتٍ يتساءلون - يتساءلون عن المجرمين - ما سَلَكَكُم في سَقَر - لم نَكُ منَ المُصَلِّين - ولم نكُ نُطعِمُ المِسكين - نخوضُ مع الخائضين - يومِ الدين - نُكذِّبُ بيومِ الدِّين - أتانا اليقين - شفاعةُ الشافعين - عنِ التَذْكرةِ مُعرِضِين - حُمُرٌ مستنفِرة - فَرّتْ مِن قَسْوَرَة - يُؤتَى صُحُفاً منشَّرَة - لا يخافون الآخرة - إنّه تَذْكِرة - فمَن شاءَ ذَكَرَه - يشاءَ الله - أهلُ التقوى -أهلُ المغفِرة

وفيما عدا التعبيرين (**لا تُبقي ولا تذَر، يشاءُ الله**) اللذين أصبحا فيما بعد جزءاً من معجم لغتنا الرسميّة، وربّما اليوميّة، فإنّ التعبيرات الأخرى تبقى إلى يومنا هذا مقتصرةً على القرآن الكريم وحده.

الألفاظ ومعجزة الجمع بين الجِدّة والوضوح:

شُحنت سوَر الكتاب الكريم بعددٍ كبيرٍ من الألفاظ الجديدة. وهذا أمرٌ دفع بكثيرٍ من المشكّكين الغربيّين إلى الادّعاء أنّ لغة القرآن ليست عربيّة، وكأنّ القرآن نفسه لم ينصّ صراحةً وأكثر من مرّةٍ على أنّه نزل "**بلسانٍ عربيٍّ مبين**". وكان أحدَ آخر من أسرفوا

في هذا الادّعاء المستشرق الألمانيّ كريستوف لوكسنبرغ الذي زعم في كتابه (القراءة السريانيّة - الآراميّة للقرآن) الصادر بالألمانيّة عام 2000 أنّ القرآن قد "وضعه" محمّد، وقد استمدّه من خلفيّةٍ مسيحيّةٍ [قصّة الخلفيّة المسيحيّة ما فتئت تتردّد باستمرار عند المستشرقين وعند المبشّرين على السواء] وأنّ لغته ليست عربيّةً بل سريانيّةٌ / آراميّةٌ وهي لغة التجّار الذين كانوا يفدون على مكّة ويختلطون بأهلها، وذهب إلى أنّ معاني القرآن ستختلف كلّياً، على ضوء هذه "الحقيقة"، عمّا ذهب إليه المفسّرون المسلمون.
Christoph Luxenberg. The Syro-Aramaic Reading of the] Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran. English Edition. Germany: 2007].

إنّ الإعجاز اللفظيّ لا يكمن في جِدّة كلمات القرآن فحسب، فهذه الكلمات، خلافاً لما يدّعيه لوكسنبورغ، جاءت على صيغٍ ومقاييس هي من صُلب قواعدنا اللغويّة العربيّة، لا يكاد يخرج عن هذه الصيغ لفظٌ قرآنيٌّ واحد، ولكنّ العجيب أنّها تَرِد ضمن سياقاتٍ لغويّةٍ فريدةٍ تتيح للناس أن يدركوا معانيها رغم جدّتها. والجمع بين الجِدّة والوضوح هو جانبٌ آخر من جوانب الإعجاز التجديديّ المحيِّر في لغة القرآن الكريم.

أهمّية الألفاظ الجديدة:

كان إيجاد لفظٍ جديدٍ واحدٍ من قبل شاعرٍ أو أديبٍ عند العرب يُعدّ بمثابة فتحٍ كبير، ولا سيّما إذا وقع هذا اللفظ موقعه في العقول والقلوب فسار على ألسنة الناس وتناولته أقلام الكتّاب

والشّعراء. وكان ورود مثل هذا اللفظ في شعر الشاعر، ولو مرّةً واحدة، كافياً لأن يلتقطه العرب فيطلقوه على الشاعر ليغلب على اسمه الأصليّ. وهكذا اكتسب النابغة الذبيانيّ اسمه من قوله (**فقد نبغتْ لنا منهمْ شؤونُ**) واستحقّ المرقِّش الأكبر هذا الاسم لقوله (**رَقَّشَ في ظَهْرِ الأديم قَلَمْ**) ولُقِّب المُسَيَّب بنُ عَلَس بهذا اللقب لقوله (**غِزاراً فقولوا للمُسَيَّبِ يَلْحَقِ**).

وحين ندرس لغة القرآن الكريم لا بدّ أن نضع في أذهاننا بعض الحقائق حول الألفاظ الجديدة فيه بشكلٍ خاصّ. فمن السهل حتّى على الطفل أن يخترع لفظاً، بل ما شاء من ألفاظٍ جديدة، ما دام يملك تسعةً وعشرين حرفاً بين يديه. إنّه يستطيع أن يعيد تشكيل هذه الحروف كما يشاء ليكوّن ملايين الكلمات الجديدة، ولكن السؤال المهمّ هو: من سيَفهم هذه الكلمات بعد ذلك؟ وما قيمتها الأدبيّة؟ هنا تتجلّى لنا بوضوحٍ حقيقة الإعجاز القرآنيّ، إذ لم يقتصر الأمر فيه على فهم العرب للنصّ الجديد من أول لحظةٍ سمعوه بها، رغم أنّه كان يحمل لهم لغةً جديدةً بكلّ عناصرها وأبعادها الأساسيّة: الألفاظ والأدوات والمصطلحات والتراكيب والتعابير والسبائك والعلاقات اللغويّة والأعراف النحويّة والأفكار والتشريعات الجديدة والأخبار التاريخيّة والحقائق العلميّة. لقد تجاوز الأمر معهم من مجرّد الفهم لما يسمعون؛ إلى الإعجاب الشديد البالغ حدَّ الذهول، واعترافِهم العفويّ، المؤمن منهم والمكذّب، بتفوّقه واستحالة الوصول إلى مَراقيه .

ومن السهل ملاحظة أنّ الألفاظ القرآنيّة الجديدة جاءت تحت واحدٍ من الأنواع التالية:

1 - أن يكون اللفظ معروفاً لدى العرب ولكنّ القرآن أعطاه معنىً اصطلاحيّاً جديداً يُفهَم من خلال السياق الخاصّ، اللغويّ أو البيانيّ، الذي جاء فيه. كالألفاظ: **سلطان، مَرَض، تولّى، أسلَم، الدنيا، الصالحات، الشاهدين، الشهّداء، الرُّوح، خاشعِين، نبتهل، إصْر، كتاب، البيّنة، البِرّ، عِوَج، الحَرْث، يَنظُرون، يَسْطُون، المُهتدون، البُروج، القَدْر، يَقْدِر، يُقَدِّر..**

2 - أو أن يكون جديداً باشتقاقه ولكنّه مأخوذٌ من جذرٍ لغويٍّ عرفه العرب من قبل، وهذا أكثر، مثل: **آتاه، ملكوت، طاغوت، الجاهليّة، صَلوات، هادُوا، مَقامِع، الفُرقان، الرقيم، مَرْقوم، المحراب، القَصَص، غُزَّى، المُحتظِر، الأَنعام، دَحاها، سُعُر، تَزاوَرُ، مُلتَحَد، العادُون، رَبّانيّون، قانِتون، المنافقون، عِلِّيُّون، شُكُور، الحَيَوان، السُّوأَى، السَلسبيل، تِلقاء، واعَدْنا..**

3 - وربّما تجاوز اللفظ مرحلة الجِدّة والابتكار إلى مرحلةٍ أكثر غنىً وتفاعلاً مع الحياة اليوميّة، وهي مرحلة الاستقرار والشيوع وكثرة التداول، فيرتقي بهذا إلى مستوى (مصطلح) وهذا النوع يعبّر، بلفظه المفرد وحده أو مرتبطاً بلفظٍ آخر أحياناً، عن معنىً أكبر من حجمه بكثير، كمثل هذه الألفاظ: **المؤمن، الكافر، الذِّكر، المَساجد، الساعة، الأجر، التقوى، الحَسَنة، السيّئة، النِّكاح، الغيب، الشهادة، الصلاة، الزكاة، الإيمان، الجهاد، الشرك، الآخرة، القيامة، النار..**

4 - ألّا يكون اللفظ ولا جذره معروفين أو متداولَين أصلاً، فأوجده القرآن، ثم جاء في سياقٍ لغويٍّ يوجّه السامع أو القارئ نحو المعنى الجديد، تحديداً أو تلميحاً. وغالباً ما يكون هذا النوع من الألفاظ معرَّباً عن لغاتٍ أخرى، ولا سيّما الفارسيّة واليونانيّة والحبشيّة والنبطيّة والسريانيّة والعِبريّة والقبطيّة، كمثل هذه الألفاظ: **الصراط، سبحانك، أبّ، قَسْوَرة، سِجِّين، بَرزَخ، سِجّيل، السِجِلّ، التَنُّور، ضِيزَى، قَمْطَرير، سُنْدُس، اِستَبْرَق، أباريق، القِسط، القِسطاس، الفِردَوس، المِشكاة، طُوبَى، قَراطيس، سُرادِق، تَنّور، إلّ، كُرسيّ، الأرائك، الجِبْت، الطُّور، اليَمّ.**

5 - وقد يكتسب اللفظ جدّته من المعنى المجازيّ الجديد الذي أضفاه القرآن عليه فمنحه بذلك قوّة الصورة البيانيّة. إنّها في الحقّ طريقة ميلادِ معظم الألفاظ في مختلف اللغات. وقد أغنى القرآن لغتنا العربيّة بمئاتٍ من هذه الألفاظ الجديدة لم تعرفها العربيّة من قبل، ومنها: **الإسلام، الكُفْر، يتزكّى، السِدرة، المِيزان، الحَرْث، الهُدى، الضَلالة، التقوى، الأمّة، اللباس، المُحصَنات، الآية، الأوّاب، الأجَل، الوازِرة، الحافِرة، الساهِرة، الخُنَّس.**

ومع ذلك، فإنّنا لم نعوّل كثيراً في إثبات الإعجاز التجديديّ للغة القرآن، كما يتبيّن للقارئ بسهولة، على كميّة "الألفاظ الجديدة" فيه، ويكفي أن نعرف أنّ الألفاظ الجديدة في الفاتحة لا تتجاوز خمسة ألفاظ (الرحمن، العالمين، الدين - بمعنى:

يوم الحساب - الصراط - الضالّين) وذلك من أصل 58 موقعاً لغويّاً جديداً اكتشفناه في هذه السورة.

لقد جاء القرآن الكريم بألفاظه الخاصّة مثلما جاء بسبائكه وتراكيبه وعلاقاته اللغويّة الخاصّة أيضاً. ولكن يجب أن نكون واعين بالفرقين الهامّين بين موقعَي كلٍّ من اللفظ القرآنيّ والسبيكة القرآنيّة. إنّ كلمات القرآن لم تكن كلّها، أو حتّى معظمها، جديدةً على اللغة العربيّة كما هو الحال مع سبائكه، من ناحية، ثمّ إنّها لم تكن عصيّةً على الاقتباس والاستخدام في لغتنا البشريّة كما هو الحال في السبائك، من ناحيةٍ أخرى. إنّ السبيكة القرآنيّة هي بمثابة "البصمة الشخصيّة" للقرآن التي يستحيل اختراقها بأيّة سبيكةٍ بشريّة.

الألفاظ الجديدة في (المدّثّر):

من السهل علينا أن نعثر في سورة (المدّثّر)، وهي 256 كلمة في أقلّ من صفحتين، على ما لا يقلّ عن 84 لفظاً جديداً، أي ما يقرب من ثلث ألفاظها. ومن هذه الألفاظ:

- الرُجْز (مصطلحٌ جديد: أي الأصنام، أو العذاب)
- الناقور (صيغةٌ جديدة: وهو الصُوْر الذي يَنفُخ فيه إسرافيل)
- صَعودا (صورةٌ بيانيّة: أي عذاباً كالصُعود في الجبل)
- بَسَرَ (لفظٌ جديد: أي كَلَح وجهُه وتَغيّر)

- لوّاحةٌ - للبَشَر (معنىً جديد، أي: مُغيِّرةٌ للون الجلد "البَشَرة"، أو: ظاهرةٌ للناس "البَشَر")
- كفروا (أي رفضوا دعوة الإسلام، وهي في الأصل اللغويّ بمعنى: غطّوا، أي أغلقوا عقولهم وقلوبهم)
- أوتوا (صيغةٌ جديدةٌ ومعنىً جديد: أي أُعطُوا)
- رهينةٌ (حلّت محلّ: مسؤولة، أو محاسَبة)
- سَلَكَكم (صيغةٌ جديدة: أي أدخَلكم)
- سَقَر (لفظٌ جديد: أي جهنّم)
- قَسْوَرَة (لفظٌ جديد: أي أسد، أو: رماة القِسيّ أو الأقواس)
- المَغفِرة (صيغةٌ جديدة)

الاستعمال الجديد للأدوات في (المدّثّر):

إلى جانب الثروة اللفظيّة الجديدة التي شُحنت بها سورة (المدّثّر)، وبأنواعها المختلفة، من السهل أن نكتشف ما لا يقلّ عن أربعة عشر استعمالاً جديداً للأدوات القديمة، مثلما رأينا في استعمال (كان) و (ما زال). ومن هذه الاستعمالات الجديدة أنّ حرف العطف (**الفاء**) لم يأتِ في مكانه كما عهدناه في لغتنا، أي بين فعلين أو اسمين ليَعطف ثانيَهما على أوّلهما، بل جاء، وفي ثلاث آياتٍ متتالية (3 - 5)، بين المفعول المتقدّم وفعلِه المتأخّر عنه: (**وربّكَ فكبِّر. وثيابَكَ فطهِّر. والرُجْزَ فاهجُر**)، ثمّ مرّةً أخرى

بين المتعلِّق والمتعلَّق به: (**ولربك فاصبِر**).

وأداة الجواب (**كلّا**) التي لا نعرفها في لغتنا العاديّة إلّا بمعنى (لا) جاءت بمعنى الزجر أو الردع أو ربّما (حقّاً) في أربع آياتٍ من السورة: (16 - 32 - 53 - 54).

واسم الاستفهام (**كيف**) في الآيتين (**فقُتل كيف قدّر، ثمّ قُتل كيف قدّر**) لا يحمل معنى الاستفهام، كما هو في لغتنا العاديّة، ولا معنى الحاليّة الذي نعرفه به عادةً، بل جاء أقرب إلى الحرف المصدريّ، فكأنّه يؤوَّل مع الفعل بعده بمصدرٍ في موضع نائب فاعلٍ، والتقدير: (قُتِل تقديرُه)، أو في تأويلٍ آخر: (قُتِل جزاءَ تقديره)، فلا مكان، على هذا، لمعنى الحاليّة أو الاستفهام في الآيتين.

والأداة (**إنْ**) تأتي بمعنى (ما) أو (ليس) في الآيتين (24 - 25): (**فقال إنْ هذا إلّا سِحْرٌ يُؤْثَر. إنْ هذا إلّا قولُ البَشَر**) أي: (ليس هذا)، وهي ظاهرةٌ فريدةٌ وكثيرة الانتشار في القرآن تشبه في حجمها وغرابتها ظاهرة (كان)، ولم أجدها في الشعر الجاهليّ مطلقاً.

***

إنّ وجود 84 لفظاً أو مصطلحاً جديداً في سورةٍ صغيرةٍ ومبكِّرة النزول كهذه، من شأنه أن يُحدث في نفوس من سمعوها لأوّل مرّة ارتجاجةً شبيهةً بتلك التي أصابت عُتبة بن ربيعة حين سمع من الرسول ﷺ الآيات الثلاث عشرة الأولى من سورة (فُصِّلت) فعاد إلى قومه، وهو اللغويّ البليغ، ذاهلاً لا يكاد يفقه

شيئاً ممّا سمع، فكيف لو أضفنا إلى هذه الشحنة من الألفاظ العناصرَ اللغويّة الجديدة الأخرى في السورة، ومنها عشرات التركيبات والتعبيرات والسبائك اللغويّة، وعشرات الصور البلاغيّة والعبارات المنفتحة وجوامع الكَلِم، فضلاً عن الأبعاد الفكريّة والثقافيّة الجديدة التي تتقاطع مع كلّ هذه المستجدّات اللغويّة والبلاغيّة؟

إعادة تكوين الوحدة اللغويّة:

ومرّت العاصفة بالعرب الأوائل تاركةً ردود فعلٍ عميقةً تتناسب مع حجمها الهائل. ولكنّ أبناء الجيل الثاني ثم الثالث، وما تتابع بعد ذلك من أجيال، بدأوا يألفون اللغة القرآنيّة، ومن ثمّ، يفقدون الإحساس بالصدمة التي أحدثتها اللغة الجديدة في نفوس الجيل الأوّل، فلم تعد تستوقفهم كثيراً الظواهر اللغويّة القرآنيّة الجديدة، ومنها ظاهرة "الآية" التي أسّست لمفهوم جديدٍ بمقابل مفهوم "الجملة"، وهي التي تشكّل الوحدة اللغويَّة للنثر العربيّ، وبمقابل مفهوم "البيت"، وهو الذي يشكّل الوحدة اللغويّة للشعر العربيّ. وقد فصلت الوحدة الجديدة بين ما اعتادوا أن يربطوه، وربطت بين ما اعتادوا أن يفصلوه، وأوجدت بذلك خلخلةً في أساس البناء اللغويّ العامّ استطاعت أن تنفذ معها باللغة العربيّة إلى أبعادٍ وآفاقٍ جديدةٍ أضافتها إلى حدودها التقليديّة السابقة. واقرأوا معي هذه الكلمات القليلة من مطلع سورة (آل عمران):

- ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ. . . ﴿٤﴾﴾

أرأيتم كيف توقفت الآية (3) قبل أن تنتهي الجملة، أي قبل مجيء شبه الجملة (**مِن قبلُ**) الذي يتعلّق بالفعل (**أنزل**) الوارد في تلك الآية (أي: أنزلَ التوراةَ مِن قبلُ)؟ ثمّ كيف حصل العكس في الآية (4) حين استمرّت الآية وامتدّت رغم انتهاء الجملة عند لفظ (**للناس**) وابتداءِ جملةٍ جديدة (**وأنزل الفرقان**)، ثمّ تستمرّ الآية في التدفّق رغم انتهاء الجملة عند لفظ (**الفرقان**) وابتداء جملةٍ جديدةٍ كلّياً لا علاقة نحويّةً تربطها بالجملة السابقة: "**إنّ الذين كفروا بآياتِ اللهِ لهم عذابٌ شديدٌ**"؟

ولو تُركت الآيات التالية من سورة (الروم) لتقاليدنا اللغويّة لأعدنا ترقيمها من جديد بحيث تنتهي الآيات عند الخطوط // التي اقترحناها هنا لتكون فواصل بشريّةً تنسجم مع مفهومنا التقليديّ للوحدة اللغويّة:

- ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ// وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ// لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ// وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ //يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ //وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾

ومن الواضح أن الفواصل القرآنيّة لهذه الآيات الخمس، والفاصلة هنا هي النقطة التي تتوقّف عندها الآية السابقة لتبدأ الآية اللاحقة، لا علاقة لها بتقسيماتنا التقليديّة التي اعتمدت دائماً على نظام الجملة.

الوضع الجديد لأدوات الربط التقليديّة:

والنظام الجديد في (الفصل والوصل) الذي استحدثته اللغة الجديدة هو من أكثر الظواهر اللغويّة شيوعاً في القرآن. وأهمّ ما يميّز هذه الظاهرة هو إسقاط أدوات الربط اللغويّة من مثل (الواو والفاء وإذْ وإنّ وإنّما وقد والضمائر المنفصلة) من مواضعها التقليديّة بين الجمل أو العبارات، بحيث يهزّنا اختفاء الحدود الإقليميّة المتعارَف عليها، والتي اعتدنا أن تحتلّ مكانها بين جملتين أو عبارتين. واقرأ معي هذه الآية:

- ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ﴾ [الرعد: 33]

فإذا بحثنا عن المحذوفات في الآية فأعدناها إلى أماكنها، كما يمكن أن تكون في لغتنا البشريّة، فستكون النتيجة شيئاً من هذا القبيل:

أفَـ[هكذا يكون] **مَن هو قائمٌ على كلِّ نفْسٍ بما كسبَتْ و**[قد] **جعلوا للهِ شُركاءَ** [فـ] **قُلْ** [لهم] **سَمُّوهُم** [إذن] **أم** [تظنّون أنّكم] **تنبّئونه بما لا يعلمُ** [بما يوجد] **في الأرضِ أم** [إنّ هذا] **بظاهرٍ من القولِ** [منكم] **بل** [الحقّ أنّه قد] **زُيِّن للذين كفروا مكْرُهم وصَدّوا عن السبيل**

فيكون الحذف قد شمل عشرة مواقع على الأقلّ في هذه الآية الواحدة. وليحاولْ أحدنا أن يستحضر بذهنه أداة الربط المختفية

في كلّ موقعٍ من المواقع المُشار تحتها بخطٍّ في الآيات التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة: 118]
- ﴿قُلۡ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبۡتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلۡحَقَّۖ﴾ [الأنعام: 57]
- ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2]

إنّ هذا النوع من الحذف ليس مجرّد أسلوبٍ لغويٍّ جديدٍ أضافه القرآن الكريم إلى اللغة العربيّة فحسب، ولكنّه إضافةٌ فكريّةٌ وبلاغيّةٌ هامّةٌ، لأنّه يمنح التعبير أبعاداً معنويّةً وظلالاً خياليّةً لم يكن لِيَملكها من غيره. وعندما تجتمع أنواعٌ عديدةٌ من هذا الحذف في آيةٍ واحدةٍ نجد الآية وقد اكتسبت بهذا الاجتماع بلاغةً وشفافيةً أضيفتا إلى المعنى الأصليّ المجرّد.

العلاقات الجديدة بين الألفاظ:

هذا كلّه يأخذ مكانه بين الآيات أو الجمل، فماذا حول الألفاظ وعلاقتها بعضها ببعض؟ لقد أوجد القرآن لُحمةً وسُدىً جديدين للربط بين الكلمة والأخرى، وهذا النوع الجديد من الروابط لم يكن معروفاً في الثقافة العربيّة آنذاك، ولا في الثقافات الأخرى، قبل ظهور المدارس الأدبيّة الجديدة كالرمزيّة

والسرياليّة في العصر الحديث، وهو يفجّر في التعبير آفاقاً فكريّةً وخياليّةً جديدةً تضاف إلى المعنى الأصلي .

فعلى سبيل المثال نجد في الآية الرابعة من الفاتحة (**مالك يوم الدين**) صلةً بين الألفاظ لم يعِ العربيّ الأوّل - بطبيعة الحال - (ميكانيكيّتها)، ولكنه استشعر، بدون أيّ شكٍّ، طبيعتها المختلفة عن طبيعة تعبيره، وهَزّتْه قوّةُ الصدمة التي تلقّاها وهو يسمع الآية لأوّل مرّة، من غير أن يُدخل هذه الآية، طبعاً، إلى مخبره اللغويّ النقديّ، وهو مَخبرٌ كان ما يزال فطريّاً وبدائيّاً ومفتقراً إلى أبسط أدوات البحث والتحليل المتطوّرة التي نملكها. إنّ العلاقة الجديدة بين اللفظين (مالك) و (يوم) لم يكن يعرفها قاموس العربيّ - ولا غير العربّي - حتّى تلك اللحظة. فقد اعتدنا إسنادَ (المُلك) إلى محسوسٍ يمكن أن يُمتلَك، فنقول: مالك العقار، ومالك الدراهم، ومالك الدرّاجة، ومالك السيّارة، ومالك الباخرة.. فكيف إذن يُملك اليوم؟! وهل للزمن مُلكيّة؟ وهل تقبل البنوك والسجلّات العقاريّة والماليّة فتح حساباتٍ وأرصدةٍ من الساعات والأيّام؟! إنّها مفاجأةٌ لغويّةٌ ذات مذاقٍ خاصٍّ جدّاً لدى العربيّ الأوّل، ولكنّ مفاجأةً أخرى تنتظره عند المنعطف، فحالما يجتاز هذه الإشارة المروريّة المُربِكة تضيء له إشارةٌ أخرى خارجةٌ عن حساباته، وتنتصب له بين اللفظين (يوم) و (الدين).

لقد اعتاد العربي، وكذلك غير العربيّ، أن يضيف الزمن دائماً لحدثٍ يحدث في هذا الزمن، فيقول: دقيقة صمتٍ، وساعة عملٍ، ويوم المعركة، وشهر الصيام، وعام الحزن، وفترة

الحرب، وعصر النهضة.. والمفاجأة هنا أنّ لفظ (الدين) في قاموس العربيّ، حتّى تلك اللحظة على الأقلّ وقبل أن يدرك الدور الجديد الذي سيؤدّيه اللفظ في هذه الآية، لا يدلّ على حدث، لأنّ الدين عنده ليس حدثاً بل فكرة مجرّدة، فإضافته إلى الزمن (يوم) ستوقع تشابكاً مروريّاً أو إرباكاً لغويّاً جديداً في رأسه، وهو لمّا يصْحُ بعدُ من الإشكال المروريّ الذي تجاوزه لتوّه في إسناد المُلك إلى اليوم.

هكذا تتزاحم المنعطفات/ المفاجآت واحداً تلو الآخر أمام العربيّ وهو يشقّ طريقه داخل السورة، وكذلك في باقي سوَر الكتاب الكريم، وذوقُه البشريّ القاصر يحاول أن يستوعب هذه الرسائل "البرقيّة" القصيرة والمركّزة وغير العاديّة تتتالى عليه تباعاً من السماء، فتعرض أمامه شريطاً لم يألفه من العلاقات اللغويّة الجديدة: فيما بين الجمل، وفيما بين العبارات، وفيما بين الألفاظ. ومع التقاء كلّ هذه الجوانب الجديدة التي بذّ بها القرآن الكريم لغة العرب، وربّما غير العرب، بأطرافها المتنوّعة، فإنّ الثورة التجديديّة لم تقتصر على اللغة وحدها، بل تجاوزتها إلى الجانب الخيالي، متمثّلاً في الصورة البيانيّة والاستخدامات المجازيّة والأساليب البلاغيّة في التعبير.

القاموس القرآنيّ الجديد للصور

كانت الصور البيانيّة تتردّد هي نفسها عند الشعراء العرب قبل الإسلام، فما أن تُعجِب أحدَهم صورةُ صاحبه حتى يعمد إليها فيعيد صياغتها ويصبّها في قالَبٍ شعريٍّ جديد، وربّما حافظ عليها كما كانت في قالبها الأوّل. وقد استمرّ هذا التأثير الجاهليّ في الخطّ الشعريّ العربيّ قروناً عديدةً بعد ذلك، وربّما تسرّب إلى بعض الشعراء والكتّاب المعاصرين، بل إلى العامّة من الناس في أحاديثهم وصورهم. وكانت هذه الصور مستمَدّةً من البيئة العربيّة المحدودة، فالشجاع أسدٌ، والجبان نعامةٌ، والكريم بحرٌ، والبخيل أرضٌ مجدِبةٌ، والحَقود جملٌ، والأكول فيلٌ، والرزين جبلٌ، والجميل شمسٌ أو قمرٌ، والرفيع نجمٌ، والذليل وتِدٌ، والطائش فَراشٌ، والوديع حَمَلٌ، واللَّجوج خُنفَساء، والمزهوّ طاووسٌ، والمراوغ ثعلبٌ، والقاسي حديدٌ أو صخرٌ، والشَّعر ليلٌ، والشَّيب نهارٌ، وأسنان الحبيب بَرَدٌ، وفمه خاتمٌ أو أقحوانٌ، وشفاهه عقيقٌ، وخدوده وردٌ أو تفّاحٌ، ودموعه لؤلؤٌ، وأنامله عُنّابٌ، وعيونه نَرجسٌ، وقدّه رمحٌ، وثغره أقحوانٌ، وجبينه صباحٌ، وحواجبه قِسيٌّ، وسوالفه عقارب أو صَوالج. . إلخ.

لقد تجاوز القرآن الكريم هذه الآلاف من الصور المتوارَثة جميعاً فأهملها وأسقطها من مخزونه التعبيريّ، ثمّ جاء بقاموسه البيانيّ الخاصّ المفعم بالصور الجديدة. وعلى الرغم من أنّني لم أقم بدراسة شاملة تمسح الصور القرآنيّة بكاملها؛ أكاد أجزم، من خلال مسحي للآيات التي درستها في مختلف جوانب هذا البحث، بأنّ البركان البلاغيّ للقرآن الكريم لم يقتصر على إيجاد خزّانٍ تصويريٍّ جديدٍ ضخم ومحيِّرٍ أضافه إلى قاموسنا الخياليّ أو البلاغيّ، بل هجر تماماً، كما فعل بالسبائك اللغويّة التقليديّة، كلّ الصور البيانيّة، المشهور المتداول منها وغير المشهور، تلك التي نجدها مبثوثةً في تراثنا الشعريّ الضخم قبل الإسلام، فلا نكاد نعثر، بل لم أعثر مطلقاً، على أيٍّ منها في القرآن الكريم. والأهمّ من ذلك كلّه، على أهمّية ما ذكرنا وخطورته، أنّ القرآن قد أحدث ثورةً أساسيّةً في البناء الفنّيّ للصورة التقليديّة، ففاجأ العرب بأنواعٍ من العلاقات المتطوّرة والبعيدة والمتنوّعة بين الأطراف التي تتكوّن منها الصورة، تلك التي تجاوزت عصرها بمسافاتٍ شاسعة. فبعد أن كانت الصور محدودة النوعيّة، محدودة العدد، محدودة الخيال، محدودة العلاقات بين أطرافها، وتكاد تقتصر على الشعر دون النثر، خرج القرآن عن هذه الحدود جميعاً، فدخل بالخيال العربيّ حِقبةً جديدة، ووضع العرب مرّةً واحدةً أمام عالمٍ كاملٍ من الصور لم يعرفها شعرهم ولا نثرهم بهذه الأبعاد والأطراف والعلاقات الجديدة.

لقد اعتادت قواعد البلاغيّين التقليديّة أن تقسّم الصورة البيانيّة إلى مجرّد مشبَّهٍ ومشبَّهٍ به وأداة تشبيهٍ ووجه شبه، ثمّ تتفرّع

الصورة عندهم إلى أبوابٍ وتصنيفاتٍ عديدةٍ، بحسب حذفِ أو ذِكرِ واحدٍ أو أكثر من هذه العناصر الأربعة. ولو جرّبنا إخضاع صور القرآن الكريم لهذه القواعد والعناوين التقليديّة لعجزنا عن ذلك في كثيرٍ منها. فأيّة قاعدةٍ يمكن أن تساعدنا في تحليل مثل هذه الصور القرآنيّة:

- ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: 179]
- ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحجّ: 73]
- ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: 43]
- ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: 53]

الصورة ذات الأبعاد المتعدّدة:

لقد عرف العرب بنزول القرآن الكريم لأوّل مرّةٍ الصورة ذات الأبعاد المتعدّدة، ولم يعد أمام البلاغيّين من خيار، عندما بدأوا يضعون للبلاغة العربيّة قوانينها ويحلّلون أجزاء الصور البيانيّة فيها، إلّا غضُّ النظر عن تلك الصور القرآنيّة، وتجاهُلُها في دراستهم لأنّها لا تستجيب لقواعدهم، أو بالأحرى لأنّ قواعدهم البشريّة المحدودة لم تستطع الإحاطة بأبعادها واستيعابَها. والأخطر من هذا أنّ من أراد أن ينال من الإسلام ومن القرآن وجد في غرابة الصور القرآنيّة وخروجها عن المقاييس التقليديّة ما ظنّ أنّه ثغرةٌ ينفُذ منها إلى عقيدة المسلمين، كما فعل ابن الراوندي، المتزندق المشهور، وهو الذي يتغنّى أصحابه اليوم بعقليّته التجديديّة وتجاوزِه بأفكاره للعصر الذي عاش فيه، وذلك

حين علّق على قوله تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: 112] فقال لابن الأعرابيّ، إمام اللغة والأدب: "**هل يُذاق اللباس؟ فقال له ابن الأعرابيّ: لاَ بأس أيّها النسناس، هَبْ أنّ محمّداً ما كان نبيّاً، أما كان عربيّاً؟ كأنّه طَعنَ في الآية بأنّ المناسب أن يُقال: فكساها اللهُ لباسَ الجوع، أو: فأذاقها اللهُ طعمَ الجوع**" [تفسير فتح القدير للشوكاني: 3-200].

الصورة الافتراضيّة:

إنّها ذلك النوع من الصور التي تترك للخيال الإنسانيّ أن يكمّلها، لأنّها تضع المشبّه أمام ما لا يمكن أن تدركه حواسّنا البشريّة العاديّة من المشبّهات به، أو تشبّه ما هو معروفٌ بما ليس معروفاً أو مُشاهَداً، كتلك الصورة التي استأثرت طبيعتها باهتمام البلاغيّين القدماء، وقد شبِّه فيها تعالى ثمارَ شجرة الزقّوم في جهنّم برؤوس الشياطين:

- ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافّات: 65]

فلأنّ أحدنا لم ير الشياطين قطّ، ولا رؤوسها، فمن شأن هذه الصورة أن تطلق لخياله العنان في افتراض الصورة التي تجسّم بشاعة تلك الشجرة وقد أخذت شكل أبغض مخلوقٍ على وجه الأرض. إنّها ذلك النوع من الصور الذي يهدم الحواجزَ والحدود التي تضعها عادةً الصورةُ العقليّة المنطقيّة المحدودة في طريق الخيال، ليجد نفسه أمام آفاقٍ لا حدود لامتدادها من

التصوّرات والألوان، وحاولوا أن تستمتعوا معي ببطءٍ، وتتملَّوا بخيالكم وأذواقكم وأحاسيسكم كلّ صورةٍ من الصور القرآنيّة التالية، لتكتشفوا طبيعة هذه الصورة الجديدة:

- ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [الأنعام: 103]
- ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [إبراهيم: 48]
- ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ [القصص: 10]
- ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان: 27]
- ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزُمَر: 67]
- ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمن: 37]
- ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [المُلك: 5]
- ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ [القلم: 51]

أنواع الصور في سورة (المدّثر):

ولو عدنا إلى سورة (المُدّثّر)، لوجدنا فيها ما لا يقلّ عن 31 صورة من هذه الأنواع المذكورة للصور، مع تأكيدنا على جِدّة هذه الصور وعدم معرفة العرب لها قبل الإسلام، سواءٌ ما قام منها على الأبعاد المعروفة للصورة قبل الإسلام، أو ما خرج عنها، مع التنبيه إلى أنّ النوع البيانيّ الذي سنذكره إلى جانب كلّ

صورة ليس هو بالضرورة النوع النهائيّ، أو الوحيد، الذي تنتمي إليه، ما دام كثيرٌ من هذه الصور خارجاً عن الحدود التي كرّستها علومُ البلاغة العربيّة. ومن هذه الصور:

- ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ (مجاز: أراد بالثياب نفسَ صاحبها)
- ﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ (كنايةٌ أو رمزٌ عن شدّة العذاب من غير تحديد طبيعته)
- ﴿أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ (كنّى بالإدبار عن الإنكار)
- ﴿كَفَرُوا۟﴾ (صورة بيانيّة: شبّه الامتناع عن الإيمان بغطاءٍ يغطّي العقل)
- ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ (صورةٌ بيانيّة: شبّه الكفر بالضياع)
- ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (صورةٌ بيانيّة: شبّه المؤمن بالمسافر أو المتنقّل)
- ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ (صورة بيانيّة: شبّه الفجر بإنسانٍ يكشف غطاء الليل)
- ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (صورةٌ بيانيّة: شبّه الإنسان بسجينٍ وراء قضبان أعماله)
- ﴿أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ﴾ (كنايةٌ عن أهل الجنّة)
- ﴿ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (رمزٌ أو كناية عن الخوف من عذاب الله فكأنّما يُتّقى بالعمل الصالح)

"الالتفات" فنّ خاصٌّ بالقرآن:

تحدّث البلاغيّون كثيراً عن ظاهرةٍ لغويّة أدخلوها في علم المعاني عُرفت بفنّ (الالتفات)، وهو أن يتحوّل المتكلّم فجأةً من صيغة خطابٍ إلى صيغة خطابٍ أخرى، كأن يلتفت من الغائب إلى المخاطب، أو من المخاطب إلى المتكلّم، أو من المفرد إلى الجمع. وربما أدخلوا فيه الانتقالَ من ماضٍ إلى مضارعٍ إلى أمرٍ، أو من اسمٍ إلى فعل، أو غير ذلك، كقوله تعالى:

- ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112]

فتحوّل الخطاب هنا فجأةً من صيغة المفرد الغائب **(فله أجره عند ربّه)** إلى صيغة جمع الغائبين **(ولا خوفٌ عليهم)** رغم أنّ المقصود في كليهما واحد.

ولكنّ البلاغيّين، للأسف، لم يفرّقوا في طبيعة هذا الفنّ بين الآيات وبين الأشعار الجاهليّة حين أتوا بشواهدهم في هذا الباب. حقّاً لقد طغت الآيات عندهم على الأشعار، وهذا اعترافٌ غير مباشرٍ بأسبقيّة القرآن في هذا المجال، ولكنّ هذه الأشعار لم تكن تصلح من الناحية العلميّة لأن توضع على صعيدٍ واحدٍ مع الآيات للتمثيل لهذا الفنّ. واقرأوا معي هذين البيتين اللذين يستشهد بهما السكّاكي في باب (الالتفات) [مفتاح العلوم، ص298]:

طـحـا بـكَ قـلـبٌ فـي الـحِـسـانِ طَـروبُ

بُـعَـيـدَ الـشـبـابِ عـصـرَ حـانَ مَـشـيـبُ

يـكـلّـفُـنـي لـيـلَـى وقـد شَـطَّ وَلْـيُـهـا

وعــادتْ عَــوادٍ بــيــنــنــا وخُــطــــوبُ

علقمة الفحل (ت20 ق.هـ)

هل نستطيع أن نعثر هنا على أيّ نوع من أنواع الالتفات، أو ما يمتّ إلى الالتفات بصلة؟ لقد أصرَّ أكثر البلاغيين، إن لم يكن كلّهم، على ذلك، والحقّ أنّنا لا نرى فيه، مهما تكلّفنا، إلّا حديثاً عاديّاً مع النفس. فعلى عادة الشعراء، بل عادة أيٍّ منّا، يجرِّد علقمة من نفسه إنساناً يتوجّه إليه بضمير المخاطَب (بك) فيحدّثه حديث النفس للنفس وكأنّه شخصٌ آخر أمامه، قبل أن يعود إلى نفسه فيتحدّث بضمير المتكلّم (يكلّفني). كم يقول أحدنا لنفسه: ماذا جرى لك يا بسّام؟ إنّ قلبي غير مطمئنٍّ لما تعمله لنفسك، سأغيّر قراري، نعم هذا أفضل لك يا بسّام.. أترون كيف تنقّلت في حديثي مع نفسي من المخاطب (لك يا بسّام) إلى المتكلّم (قلبي) إلى المخاطب مرّةً أخرى (تعمله لنفسك) إلى المتكلّم من جديد (سأغيّر قراري) ثم إلى المخاطب مرّةً ثالثة (لك يا بسّام).. فهل من حقّي أن أسميّ كلامي هذا مع نفسي (التفاتاً) وهل من حقّي أن أضعه جنباً إلى جنب مع الفنّ القرآنيّ المعروف بهذا الاسم؟ أم هو ببساطة: مجرّد (تجريد) يدخل تحته الكثير من أحاديثنا اليوميّة؟

(الالتفات) في القرآن الكريم فنٌّ جديدُ كلّياً لم يعرفه الأدب العربيّ قبل القرآن ولا بعده، وما يزال حتّى الآن بعيداً عن متناول أقلامنا، بل لا أعلم له شبيهاً في أيّة لغةٍ أخرى. وهو ليس مجرّد حالةٍ عرَضيّةٍ تمرّ مصادفةً هنا أو هناك، بل يشكّل ظاهرةً بيانيّةً اختصّ بها القرآن وحده. وعندما أقول (ظاهرة) فإنّما لأؤكّد الكثافة التي يتردّد بها هذا الفنّ، بأنواعه المختلفة، في القرآن الكريم. واقرأوا معي هذه الآيات الثلاث الأولى من سورة (الإسراء) لنرى كيف تنقّل الضمير العائد على ذي الجلالة ستّ مرّاتٍ في الآيات الثلاث، بين: هو، وأنا، ونحن:

- سبحان الذي أَسْرَى [هو] **بعبدِهِ ليلاً مِن المسجدِ الحرامِ إلى المسجدِ الأقصى الذي باركْنا** [نحن] **حولَهُ لِنُرِيَهُ مِن آياتِنا إنّه** [هو] **هُوَ السميعُ البصيرُ. وآتَينا** [نحن] **موسى الكتابَ وجعلناهُ هُدىً لبني إسرائيلَ ألّا تتّخِذوا مِن دوني** [أنا] **وكيلا. ذُرّيّةَ مَن حَمَلْنا** [نحن] **معَ نُوحٍ إنّه كان عبداً شَكوراً**

التفات الزمن:

وهناك أنواعٌ عديدةٌ من الالتفات القرآنيّ، منها تداخلُ الأزمان، فيتوحّد الماضي والحاضر والمستقبل في زمنٍ واحد. إنّها الأبعاد الإلهيّة الخاصّة للزمان والمكان، وهي لا تدخل تحت تعريفاتنا البشريّة. فالعبارات القرآنيّة تتنقّل عادةً بين الأزمان البشريّة الثلاثة غير آبهةٍ بمقاييسنا الدنيويّة، فتتحرّر من قيودنا وتخرج عن الأبعاد التي رسمناها لها في أذهاننا المحدودة.

ولنقف معاً عند هذه الآيات لنرى كيف تتماهى الحدود وتتشابك بين الماضي والحاضر والمستقبل:

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ [الأنعام: 27] (أي سيوقَفون يوم الحساب فيقولون)

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 75] (أي أريناه)

- ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُۚ﴾ [هود: 38] (أي وصنَعه)

التفات النصب:

ولكنّ أكثر ما يشدّ انتباهنا، وربّما يثير عجبنا، بين أنواع الالتفات القرآنيّ؛ ما أستطيع أن أسمّيه (الالتفات النحويّ). ويتمثّل هذا النوع بشكلٍ خاصٍّ في حالات النصب الطارئة والمفاجئة للقارئ، وهي حالاتٌ أربكت النحويّين على مدى العصور، وحاولوا جهدهم، كما هو شأنهم مع أيّة حالةٍ قرآنيّةٍ استعصت على قواعدهم البشريّة القاصرة، أن يوجدوا المسوّغات النحويّة لها، حتّى إن اضطرّهم الأمر أحياناً إلى الابتعاد عن المعنى الحقيقيّ للآية. وإلى أن يتوصّل النحويّون، إذا توصّلوا، إلى صيغةٍ نحويّةٍ دائمةٍ لهذا النوع من النصب؛ فإنّنا نقترح، بدلاً من الضياع في المتاهات النحويّة، أن ندخله في النحو تحت اسم (المنصوب القرآنيّ) أو (النصب الالتفاتيّ). أمّا أولئك المشكّكون من المستشرقين، ممّن يدّعون أنّ حالات الالتفات النحويّ في

القرآن إنّما هي "أخطاءٌ" لا أكثر ولا أقلّ، فيكفي لدحض اتّهاماتهم، واتّهامات كلّ متشكّك، أن أعرض ما يلي:

أولاً - القرآن الكريم أقدم من القواعد، بل كان هو الحافز للنحويّين واللغويّين والبلاغيّين على وضع قواعدهم، ومن غير القرآن ما كان لهم أن يضعوا قواعدهم في تلك المرحلة المبكّرة من عمر اللغة العربيّة، فالقرآن هو الرقيب على تلك القواعد، وليست القواعد هي الرقيبة على القرآن.

ثانياً - إذا أخطأ محمّدٌ في القرآن، وهو الذي اعتاد المشكِّكون أن يَنسبوا القرآن إليه، فلماذا لم يخطئ في الحديث الشريف؟ وهل كان في حديثه أكثر عنايةً وتنقيحاً منه في قرآنه، رغم أنّ حجم حديثه يزيد عشرات الأضعاف على حجم القرآن، ورغم أنّ حديثه هو حصيلة كلامه اليوميّ والعاديّ والمرتجل مع الناس؟ وهل تَسْلَم لغته من الأخطاء إذا ارتجل، ثم تمتلئ بهذه الأخطاء إذا انفرد إلى نفسه وعكف، بعيداً عن أعين الناس، على تأليف نصٍّ سينسبه بعد قليلٍ إلى إلهه؟

ثالثاً - إذا كانت هناك أخطاءٌ حقاً أفلم يكن الشعراء والفصحاء من الصحابة قادرين على تداركها وتصحيحها، فيصلنا القرآن بهذا سليماً معافىً من تلك الأخطاء؟ بل، وهو الأهمّ، أفلم يكن في مثل هذه الأخطاء ما يكفي لصرف أولئك الصحابة عن الدين الجديد الذي "يخطئ" إلهُه في أبسط قواعد الكتابة؟

رابعاً - إنّ كثيراً من حالات الالتفات النحويّ القرآنيّ، لو قبلنا بمبدأ الخطأ، أقرب إلى أن تكون من باب (الشمسَ مشرقةٌ)

هكذا بفتح المبتدأ، ممّا لا يمكن أن يخطئ به حتّى المبتدئ في تعلّم العربيّة، كما في هذه الآيات:

- ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ [النساء: 4]
- ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: 145]
- ﴿وَلَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞۖ﴾ [هود: 69]
- ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ﴾ [مريم: 34]
- ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ [الأنبياء: 92]
- ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ [الحجّ: 78]
- ﴿سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: 58]
- ﴿كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: 15-16]
- ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [المطفّفين: 27 - 28]
- ﴿سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾ [المسد: 3-4]

وأخيراً، إنّ وجود خمسة عشر موقعاً للالتفات، على الأقلّ، وبأنواعٍ مختلفة، في سُورةٍ صغيرةٍ ومبكّرة النزول مثل (المدّثّر)، دلالةٌ واضحةٌ على حجم هذه الظاهرة وأهمّيتها بين الظواهر الجديدة في القرآن، ودلالةٌ على حجم الصدمة اللغويّة والبلاغيّة التي تلقّاها العربيّ وهو يستمع إلى كلمات الوحي لأوّل مرّة.

اللغة المنفتحة

فاجأ القرآن العرب بنوعٍ جديدٍ من اللغة ذات الوجوه المتعدّدة، ولكن من غير أن يقعَ التناقض بين هذه الوجوه. وكان من شأن هذه اللغة السماويّة المرنة أن تستمرّ حيّةً مع العصور، فتكتشف فيها الإنسانيّةُ كلّ يوم ما لم يكتشفه السابقون من معانٍ لم تسمح حقائق عصرهم ومعارف علمائهم بإظهارها، وهكذا يفهمها أبناء كلّ جيلٍ، وربما أبناء كلّ أرضٍ أو ثقافة، تبعاً لفكرهم ومكتشفاتهم وعلوم عصرهم. ويجب أن أعترف بأنني لم أدرك، إلّا متأخّراً، الحكمة من منع عمر بن الخطّاب الناس، في مواقف مشهودةٍ عديدةٍ له، من تفسير القرآن أو السؤال عن معانيه، إلى حدّ ضرْبِهم وجلدهم وحبسهم. [عن أبي العَدَبَّس قال: "كنّا عند عمرَ بنِ الخَطّابِ رضي الله عنه فأتاه رجلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما "**الجَوارِ الكُنَّسِ**"؟ فطَعنَ عمرُ بمِخْصرةٍ معه (أي عصاً) في عِمامةِ الرّجل فألقاها عن رأسِه، فقال عمرُ: أحَروريٌّ؟ والذي نفْسُ عمرَ بنِ الخطّابِ بيده، لو وجدتُكَ محلوقاً (أي حليق الرأس) لأنْحَيتُ القَمْلَ عن رأسِك (أي قطعت رأسك)". رواه الحاكم. وانظر رواياتٍ عديدةً عن عمر رضي الله عنه في هذا الباب في (جامع الأحاديث للمسانيد والمراسيل) للسيوطيّ. جمع وترتيب أحمد عبد الجواد وعبّاس أحمد صقر. دمشق: 1981. قسم المسانيد، ج 2، الصفحات 143 - 145].

فأن تضع تفسيراً للقرآن في تلك الفترة النبويّة / الصحابيّة يعني - بمفهومنا القاصر - أن يكون بين أيدينا كنزٌ من المفاتيح الذهبيّة للدخول إلى عالم الأسرار اللغويّة للقرآن الكريم - ولكنه في عيني رجلٍ يملك بصيرة عمر رضي الله عنه يعني أن تغلق على الناس عقولَهم بعد ذلك، وتحُدّ من اجتهاداتهم واكتشافهم لأسرار القرآن ومعجزاته، وهو الكتاب الذي "**لا تنقضي عجائبه**" - كما أنبأنا الرسول صلى الله عليه وسلم -. ومن سيجرؤ، حتى في القرن الهجريّ الثاني، أن يقترح تفسيراً جديداً لأيّة آيةٍ لو سبق أن وُضع لها تفسيرٌ آخر في القرن الإسلاميّ الأوّل، وفي عصر صحابيٍّ جليلٍ مثل عمر رضي الله عنه، فكيف إذا كان عمر قد سمع هذا التفسير ثمّ سكت عنه؟

إنّ اكتشافات الإعجاز العلميّ الضخمة اليوم، وقد ظلّت خفاياها مختبئةً تحت أجنحة هذه اللغة المنفتحة قروناً طويلة، ما هي إلّا ثمرةٌ واحدة من ثمار هذه الخصيصة اللغويّة لكتاب الله، وهي أيضاً من ثمار حفاظ الصحابة الكرام على القرآن الكريم غير مشروحٍ أو مفسَّر. ويكاد يكون هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات مبثوثاً في آيات ما يطلق عليه مصطلح (المتشابه) من القرآن، ولكن ليس في (المُحْكَم) من آيات العقيدة والتوحيد. إنّ من السهل على المفسّرين أن يختلفوا مثلاً حول معنى اللفظ القرآنيّ المنفتح (الصَمَد) في سورة (الإخلاص): (**اللهُ الصَمد**) لأنّ معانيه المحتمَلة، على تعدّدها، لا تخرج به عن جوهر التوحيد، ولكن لا مجال للاختلاف أو لتعدّد الاحتمالات فيما يسبقه أو يليه من ألفاظٍ وتعبيرات: (**أحد، لم يلد، ولم يولَد**)

لأنّ الأمر هنا دخل في صُلب التوحيد ولا يتحمّل الجدل أو تعدُّد الآراء، مهما توالت العصور واختلفت الأمكنة وتنوّعت الثقافات.

وعبارة (الله أكبر) نموذجٌ قريب المتناول لتوضيح ما نقصده باللغة المنفتحة. لقد تُرجمت العبارة دائماً إلى الإنكليزية هكذا *Allah is great* أو *Allah is the greatest*. إنّ أيّاً من الجملتين لم تكن ترجمةً دقيقةً لـ (الله أكبر) لأنّ اللفظ (أكبر) يقابله الكلمة الإنجليزيّة *Greater* وإذن فالترجمة الصحيحة لهذه العبارة هي *Allah is greater*. لقد ترك الإسلام العبارة هكذا مفتوحةً، رغم مخالفتها لأعرافنا اللغويّة التي تقتضي مجيء الأداة (مِن) بعد اسم التفضيل، حتّى يتيح لمن يردّدها أن يفترض بعدها ما شاء من كلمات تقتضيها ظروفه: الله أكبر .. من كلّ شيء، من أيّ حزن، من أيّ فرح، من أيّ همّ، من أيّة شهوة، من أيّ ظالم .. إلخ، ولو كانت (الأكبر) أو (كبير) بدلاً من (أكبر) لانغلقت العبارة وتوقّفت عند انتهاء ألفاظها ولم تُتِح لنا أيّة مسافةٍ للمناورة يتنفّس فيها خيالنا أو تتحرّك خلالها أفكارنا. لقد أفقدتْنا الألفةُ حقّاً قدرتَنا على الإمساك بأجمل ما في هذه العبارة من جدّةٍ وتفرّدٍ وانفتاح، فغدونا نردّدها اليوم وكأنّها (الله كبير) ومن هذه الحقيقة نشأ الانحراف والخطأ في ترجمتها إلى اللغات الأخرى.

وخير مقياسٍ لكشف العبارات أو الألفاظ ذات الأبعاد المتعدّدة هو الإعراب. فكلّما زادت احتمالات إعراب الكلمة أو العبارة ازداد توهّجها وتعدّدت معانيها وغَنِيت بالظلال والإيحاءات والألوان. وقد تجاوز القرآن الكريم الشعر واللغة

الأدبيّة لعصر نزوله، ففاجأ العرب بلغةٍ جديدةٍ تستجيب لتقلّب العصور، وتَجدُّد الأحداث، واختلاف الأنفس، وتطوّر الفكر البشريّ وثقافتِه وعلومه واكتشافاته عبر القرون، فيأخذ الناس منه، كلٌّ في زمانه وبيئته ومكانه، ما تتّسع له مفهوماتهم وثقافتهم، ويناسب عصرهم ومَصرهم وفكرهم وحاجاتهم، من غير تناقضٍ في هذه المفهومات، على تباينها واختلافها. ولا شكّ أن الغنى القرآنيّ بهذا النوع من الألفاظ والوحدات اللغويّة ذات الأبعاد المتعدّدة فتح أمام العرب أبواباً واسعةً لإغناء أدبهم وشعرهم بهذه اللغة الثريّة الجديدة.

أمّا النصوص السماويّة الأخرى، التوراة والإنجيل، فمن السهل أن نجد فيها مثل هذا النوع من اللغة المنفتحة، ولكنّنا عاجزون عن الخروج بحكمٍ موضوعيٍّ سليمٍ عنها، إذ إنّ معظم نصوصها التي بين أيدينا يرويها بشرٌ، أو أنبياءٌ على أبعد تقدير، وتندر فيها النصوص التي يتحدّث فيها الله بنفسه، فهي إذن، على الأغلب، ليست لغة السماء بحرفيّتها، بل تفسيرٌ لها في أفضل الأحوال. ثمّ إنّنا، من ناحيةٍ أخرى، لا نملك تلك النصوص السماويّة بلغتها الأصليّة التي أُنزِلت فيها، فالترجمة، مهما كانت دقيقةً، ما هي إلّا تفسيرٌ شخصيٌّ يعبّر، وبشكلٍ محدودٍ، عن وجهة نظر المترجِم فيما يترجمه، كما أنّ الترجمات كثيراً ما تضطرب بين يدَي المترجم، ولا سيّما إذا كان من الدقّة والموضوعيّة والإخلاص بحيث يعجز عن وضع ما غمُض عليه من النصّ في لغةٍ علميّةٍ دقيقةٍ واضحة، فيعمد إلى أسلوبٍ محيَّرٍ يُشيع في الترجمة غموضاً يقترب بها ممّا قد نظنّه اللغة المنفتحة.

أضف إلى ذلك ما تسبّبه الفوارق النحويّة واللفظيّة والثقافيّة بين اللغات من صعوبةٍ أمام من يترجمها وهو يحاول أن ينقل المعنى من لغةٍ إلى لغةٍ أخرى لها قوانينها وثقافتها وأعرافها المختلفة.

إنّ من حقّنا مثلاً أن نتردّد في الحكم على عبارةٍ توراتيّةٍ غامضةٍ مثل "**أسّستَ حَمْداً بسببِ أضدادِكَ**" [مزامير: 8: 2. نسخة دار الكتاب المقدّس في العالم العربيّ، ؟: 1981] بأنّها عبارةٌ منفتحةٌ، إذا عرفنا أنّ العبارة نفسها في النسخة الإنجليزيّة جاءت منغلقةً ولا تحتمل وجهين:

Thou ordained strength because of thine enemies

[The Holy Book. King James Version. Collins' Clear-Type Press, London:1950]

وترجمتُها – وهي ترجمةٌ شخصيّةٌ لي أيضاً لها ما للترجمات الشخصيّة من مساوئ – : "**لقد أكسبكَ أعداؤكَ قوّةً**". [جاءت ترجمة العبارة في نسخة (دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، لبنان: 2004) هكذا: "**تعزّزتَ في وجهِ خصومِك**" وهي أقلّ غموضاً، كما هو واضح، من عبارة النسخة العربيّة الأخرى، ولكنّها، أيضاً، أكثر غموضاً من النصّ الإنجليزيّ] ونحن لا نواجه مثل هذه المشكلة مع القرآن الكريم الذي يتكلّم الله تعالى فيه بنفسه من أوّل آيةٍ فيه إلى آخر آية، ثمّ إنّ بين أيدينا نصّه الأصليّ الأوّل كما هو، من غير المرور بلغةٍ وسيطةٍ أو أكثر كما هو الحال مع بقيّة الكتب السماويّة.

المواقع الانفتاحيّة في سورة (المدّثّر):

لقد اعتمدنا سورة (المدّثّر) حتى الآن في دراستنا التحليليّة لمختلف الجوانب اللغويّة الجديدة في القرآن، ولو شئنا رصد الألفاظ والتعبيرات المنفتحة في هذه السورة، وهي عادةً أكثر المواقع التجديديّة إثارةً للجدل عند المفسّرين واللغويّين والنحويّين، وأرحبها قابليّةً للشروح المتعدّدة والتخريجات النحويّة المختلفة، ولا سيّما إذا أضفنا إليها تعدّد القراءات، وجدليّة الناسخ من الآيات ومنسوخها، لخرجنا منها بما لا يقلّ عن 29 موقعاً، بين لفظٍ أو عبارة. وهذا بعضها:

قُمْ فأنذِر - وربَّك فكبِّر - والرُّجْزَ فاهجُر - ولا تَمْنُنْ تَستكثِرْ - وبنينَ شُهودا - ومهّدتُ له تمهيدا - كلّا - لَوّاحةٌ للبَشَر - لِمَن شاء منكم أنْ يتقدّمَ أو يتأخّر - إلّا أصحابَ اليمين - نخوضُ مع الخائضين - أن يُؤتَى صُحُفاً مُنَشَّرة - هو أهلُ التقوى

وبإمكانكم أن تتوقّفوا عند كلّ لفظٍ أو عبارةٍ منها، وأن تتمعّنوا فيها واحدةً واحدة، لتتبيّنوا بأنفسكم الأبعاد العديدة التي يحملها كلٌّ منها، بدءاً من العبارة الأولى: "**قم فْأنذِرْ**" وما يحمله الفعل (قُمْ) من معانٍ احتماليّةٍ متعدّدة: فهل هو النهوض، أو هو التحرّك، أو هو الإشارة للشروع بالعمل، أو هو الاستنفار والتأهّب؟ وكذلك الفعل (فأنذِر) الذي قد يعني: فبلّغ الرسالة، أو: فأنذر باقتراب الساعة، أو: فأنذر بعقوبة الدّنيا، أو: فأنذر بالنار والخلود فيها... وانتهاءً بالعبارة الأخيرة فيها: (**هو أهلُ التقوى**) وما في اللفظ (أهل) من معانٍ محتمَلة: صاحب الشيء،

أو مانحه، أو الجدير به، أو مرجعيّته، وكذلك ما في لفظ (التقوى) من إمكاناتٍ معنويّةٍ متعدّدة: فقد يكون بمعنى الاتّقاء: وهو اتقّاؤنا لعذاب الله يوم القيامة بإيماننا به، وقد يكون بمعنى الوقاية نفسها: أي وقايته تعالى للناس من هذا العذاب لو آمنوا به، أو وقايته لهم من شرور الدنيا..

إنّ النسبة العالية من المواقع المنفتحة في (المدّثّر) تقدّم لنا فكرةً تقريبيّةً عن مدى سيطرة هذا النوع من الألفاظ والتعبيرات المنفتحة على لغة القرآن الكريم في سائر سوَره، مع التأكيد على أنّ انفتاح هذه اللغة لا يعني وجود ثغرةٍ خطيرةٍ في القرآن تمكّن أصحاب الأغراض من تحريف معانيه، وقد جرّبوا ذلك على مدى العصور، وما زالوا يفعلون، وإنّما هي خصيصةٌ تغني هذه المعاني وتزيدها خصوبةً وحيويّةً وعطاءً على مرّ القرون، وعبر تطوّر معارف الإنسان واختلاف بيئته وثقافته.

القراءات القرآنيّة والانفتاح:

إنّ باب القراءات من أعجب ما قدّمه القرآن لنا في مجال اللغة المنفتحة، ممّا لم يعرفه أيّ كتابٍ آخر عرفته البشريّة، كما سبق أن أكّدنا. وقد أثار المستشرقون، ومن تبعهم بعد ذلك، لغطاً كبيراً حول هذا الجانب الإعجازيّ في لغة القرآن، ورصدوا له البحوث المطوّلة، وخصّصوا من أجله المنح الدراسيّة السخيّة رجاء أن يعثروا على منافذ لشكوكهم أو ثغراتٍ لخيالاتهم يستطيعون النفاذ منها للنيل من مصداقيّة القرآن ومرجعيّته، من غير أن يتوقّفوا للحظةٍ واحدةٍ مع ضمائرهم ومناهجهم العلميّة، والتي

تعلّمنا منها الكثير نحن الشرقيّين، فيعترفوا معها بأنّ القراءات القرآنيّة ما هي إلّا جانبٌ إعجازيٌّ آخر في لغة هذا الكتاب المدهش.

هل سمعتَ عن كتبٍ عديدةٍ جاءت في كتابٍ واحدٍ، ووجوهٍ من النصوص اختُصِرَت في نصٍّ واحد، بحيث يمكن لهذا النصّ أن يُقرأ بأكثر من طريقة، أو أن يحمل أكثر من معنىً، من غير أن يكون هناك أيّ تناقضٍ أو تباعدٍ بين هذه المعاني على اختلافها وتعدّدها؟ إنّ المسألة ليست اختلافاً بين المسلمين، وإنّما هي طرائق متنوّعةٌ للقراءة أُنزلت هكذا متعدّدةً من السماء، إغناءً للغة القرآن، وإثراءً لمعانيه، وتسهيلاً لقراءته، ودعماً للجانب الانفتاحيّ في لغته بحيث تتماشى مع تغيّر الأزمنة والأمكنة، وإضافةً جديدةً إلى جوانبه الإعجازيّة التي يتفرّد بها دون أيّ كتابٍ آخر. وإذا كان من خلافٍ بين اللغويّين أو القرّاء بخصوص هذه القراءات فإنّما هو حول "مَن يفضِّل ماذا؟" من هذه القراءات، لأنّها جميعاً، والقراءات السبع منها بشكلٍ خاصّ، مُنزَلةٌ من السماء:

- **عن عمر بن الخطّاب ﵁ قال: سمعتُ هشامَ بنَ حكيم يقرأ سورةَ (الفرقان) في حياةِ رسولِ الله ﷺ فاستمعتُ لقراءتِه فإذا هو يقرأها على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقرئْنِيها رسولُ الله ﷺ فكدتُ أساورُه في الصلاة، فانتظرتُه حتّى سَلّم، ثمّ لَبّبتُه بردائه، فقلتُ: مَن أقرأكَ هذه السورة التي سمعتُك تقرأ؟ قال: أقرَأَنِيها رسولُ الله ﷺ، فقلتُ: كذبتَ، فوالله إنّ رسولَ الله ﷺ أقْرأَنِيها على**

غيرِ ما قرأتَ. فانطلقتُ به أقودُه إلى رسولِ الله ﷺ، فقلتُ: يا رسولَ الله، إنّي سمعتُ هذا يقرأ سورةَ (الفرقان) على غير ما أقرَأْتَنِيها، فقال رسولُ الله ﷺ أرسِلْه يا عمر، اِقرأْ يا هشام. فقرأ القراءةَ التي سمعتُه يقرأُها، فقال رسولُ الله ﷺ: هكذا أُنزِلَتْ. ثمّ قال لي: اِقرأ يا عمر، فقرأتُ التي أقرأَني، فقال: هكذا أُنزِلَتْ، إنّ هذا القرآنَ أُنزِلَ على سبعةِ أحرفٍ فاقرأوا ما تَيَسّرَ منه [رواه البخاري ومسلم على اختلافٍ في بعض ألفاظهما. وللمزيد من هذه الأحاديث راجع كتب القراءات، ولا سيّما مقدّمة كتاب (تقريب النَشْر في القراءات العشر) لابن الجزريّ ت833هـ. تحقيق إبراهيم عطوة عوض. دار الحديث، القاهرة: 1996. ص 47-51]

ومن المهمّ أن ننبّه أخيراً إلى أنّ القراءات السبع، وقد صادف أن جاءت سبعاً لأنّ عدد القرّاء المشهورين الذين تنتهي إليهم أسانيد قراءاتنا كانوا سبعةً، هي غير (الحروف السبعة) التي جاءت في الحديث النبويّ والمقصود بها اللهجات المحلّية وكذلك المخارج المختلفة للحروف التي يمكن أن تتنوّع بين مثقّفٍ وأمّيٍّ وشابٍّ وشيخٍ، كما يمكن أن توضّح لنا هذه الواقعة:

- **لقي رسولُ الله ﷺ جبريل [وفي رواية: عند أحجار المراء، جبلٌ بقُباء] فقال: يا جبرئيل، إنّي بُعثتُ إلى أمّةٍ أمّيين، منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قطّ. قال: يا محمّد، إنّ القرآن أُنزل على سبعة أحرف [وفي رواية: فليقرأوا القرآن على سبعة أحرف]** [رواه الترمذي، عن أبيّ بن كعب]

أخيراً، يجب أن أعترف، وأنا في نهاية رحلتي الأولى لدراسة الإعجاز التجديديّ في لغة الكتاب لأتهيّأ للإبحار في آفاق سوَره الكريمة، سورةً بعد سورة، وآيةً بعد آية، أنّها كانت "مغامرةً" إنسانيّةً استكشافيّةً ضعيفةً قاصرة، مهمّا تزيّت بزيّ العلم والموضوعيّة. إنّ كلّ تناولٍ بشريٍّ لهذه اللغة السماويّة المعجزة لن يستحقّ أن يوصف بأكثر من "مغامرة". كيف ونحن نعترف بعجزنا وضعفنا أمام التعبير الإلهيّ الكامل الذي لا يأتيه الباطل ولا النقص ولا الوهن ولا الخطأ من بين يديه ولا من خلفه.

وما زال التحدّي الإلهيّ للعرب بأن يأتوا (**بسورةٍ مِن مثله**) قائماً كأنّما نزل للتوّ، لم ينَل منه شيءٌ أو يقفْ له معاندٌ على توالي العبقريّات ومرور الأحقاب.

أهمّ المصادر والمراجع

(وهي لا تتضمّن مجموعات الحديث الشريف والمعاجم والموسوعات وكتب النحو واللغة والتفسير التي لم نُحِل إليها في هذا البحث، ولا تتضمّن كذلك الموسوعات الضوئية والألكترونيّة الكثيرة التي اعتمدنا عليها، ومنها موسوعات القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر العربيّ، ولا سيما "الموسوعة الشعريّة" الضوئيّة الهامّة، التي قام عليها المجمّع الثقافيّ في دولة الإمارات، بإصداراتها الثلاثة: 1998 - 2000 - 2003)

- الأصبهانيّ، أبو بكر أحمد بن الحسين. المبسوط في القراءات العشر. تحقيق سبيع حمزة حاكمي. مؤسّسة علوم القرآن ببيروت ودار القبلة بجدّة: 1995
- الأنصاريّ، أحمد مكّي. نظريّة النحو القرآنيّ. دار القبلة (؟): 1405هـ
- الباقلّاني، القاضي أبو بكر محمّد بن الطيّب. إعجاز القرآن. تعليق وتخريج صلاح بن عويضة. دار الكتب العلميّة، بيروت: 2001
- الجرجانيّ، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تعليق محمود محمد شاكر. دار المدني، القاهرة وجدّة: 1992
- ابن الجزريّ، محمد بن محمد. تقريب النشر في القراءات العشر.

تحقيق إبراهيم عطوة عوض. دار الحديث، القاهرة: 1996
- الرازيّ، الفخر. التفسير الكبير. دار إحياء التراث العربيّ، بيروت: 2001
- الزايد، سميرة. الجامع في السيرة النبويّة. المطبعة العلميّة (؟): 1995
- الزّركشيّ، بدر الدّين محمّد بن بهادر. البرهان في علوم القرآن. تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم. دار إحياء الكتب العربيّة، القاهرة: 1958
- السكّاكيّ، أبو يعقوب يوسف. مفتاح العلوم. تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت: 2000
- السيوطيّ، جلال الدين. الإتقان في علوم القرآن. تحقيق محمد سالم هاشم. دار الكتب العلمية، بيروت: 2003
- السيوطيّ، جلال الدين. جامع الأحاديث للمسانيد والمراسيل. جمع وترتيب أحمد عبد الجواد وعبّاس أحمد صقر. مطبعة محمّد هاشم الكتبيّ، دمشق: 1981
- الشّوكانيّ، محمّد بن عليّ. فتح القدير: الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علم التفسير. دار الفكر، القاهرة: ؟
- الطبريّ، أبو جعفر محمد بن جرير. جامع البيان في تأويل القرآن. دار الكتب العلميّة، بيروت: 1999
- عضيمة، محمّد عبد الخالق. دراسات لأسلوب القرآن الكريم. دار الحديث، القاهرة: 2004
- العلواني، طه جابر. نحو موقف قرآنيّ من النسخ. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة: 2007

- الفَراهي، عبد الحميد. تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان. الدائرة الحميدية، الهند: 2000
- القطّان، منّاع. مباحث في علوم القرآن. مؤسّسة الرسالة، بيروت: 1998
- الكتاب المقدّس. دار الكتاب المقدّس في الشرق الأوسط، بيروت: 2004
- الكتاب المقدّس. (؟)، إصدار دار الكتاب المقدّس في العالم العربي: 1981
- لانج، جيفري. حتّى الملائكة تسأل. ترجمة زين نجاتي. مكتبة الشروق الدولية، القاهرة: 2002
- Asad, Muhammad. The Message of the Qur'an. Bristol (England), The Book Foundation. Vol. 5, P: 758
- Islahi, Amin Ahsan. Pondering over the Qur'an. translated by M.S.Kayani.London: 2003
- The Holy Book. King James Version. Collins' Clear-Type Press. London: 1950
- Good News for Modern Man (the New Testament in today's English Version). American Bible Society: 1966
- The Holy Bible, Containing The Old and New Testament. Rivised Standerd Version. Division of Christian Education of the National Council of the Churches of Christ in the U.S.A. Great Britain: 1971
- The Holy Bible. Trinitarian Bible Society. London: 2000
- Luxenberg, Christoph. The Syro-Aramaic Reading of the Koran: A Contribution to the Decoding of the Language of the Koran. English Edition. Germany: 2007
- Murry, Middleton. The Problem of Style. Oxford 1960

يحاول هذا الكراس أن يثبت أن معظم ما كتب في الإعجاز اللغوي حتى الآن، إن لم يكن كله، يدخل في باب البلاغة والفصاحة والعبقرية والجمال وليس في باب الإعجاز. وهو يرسم الحدود الفاصلة بين نوعين من التفوق اللغوي، الإلهي والبشري، وذلك من خلال اكتشافه، بالتحليل اللغوي والعلمي، أن لغة القرآن الكريم، رغم أنها عربية وتستند إلى القواعد والجذور العربية، هي، بكلّ تفاصيلها، لغة جديدة كليا ومختلفة عن لغة العرب، قبل الإسلام وبعده، بل تختلف تماماً عن لغة النبوّة، بكل عناصرها اللغوية والبلاغية.

والبحث يقدّم للقارئ نظّارتين جديدتين يتخلّص بهما من تأثير الألفة التي تقتل قدرته على رؤية الإعجاز التجديديّ في لغة القرآن الكريم، ليفاجأ، وهو ينظر إلى هذه اللغة من خلال عدستيه الجديدتين، باكتشاف أسرارٍ وحقائق لغويّةٍ وبيانيّةٍ لا حدود لها عن اللغة القرآنية الجديدة.

«هذا الكتاب من أهم ما قرأت في تحدي القرآن الكريم بلغته ولسانه، منذ أن نشر الرافعي كتابه «تحت راية القرآن الكريم»، وإذا أردنا الدقة والإنصاف فإنه يمتاز على ما كتب الرافعي ومن جاء بعده بمزايا عديدة، ولا أجد فيما اطلعت عليه من دراسات في مجالات التحدي والإعجاز كتابًا يجاريه ويقترب منه»

د. طه جابر العلواني

المؤلف:

من مواليد اللاذقية ـ سورية عام ١٩٤١م. درّس في عدة جامعات عربية وبريطانية. أسّس عام ١٩٩١م أكاديمية أوكسفورد للدراسات العليا، وعمل وما يزال في عدة مجالس وهيئات علمية بريطانية، ويعمل الآن مفتشاً في المجلس البريطاني للاعتراف بالمعاهد والجامعات (BAC)، ومشرفاً على طلاب الدراسات العليا في كلية لامبتر ـ جامعة ويلز.

من مؤلفاته: حركة الشعر الحديث من خلال أعلامه في سورية (١٩٧٨م)، الصورة بين البلاغة والنقد (١٩٨٤م)، الواقعية الإسلامية في الأدب والنقد (١٩٨٥م)، مسلمون في مواجهة الإسلام، مسيحيون في مواجهة المسيحية (٢٠٠٨م)، إدارة الصلاة (٢٠١٣م).

ISBN 978-1-56564-598-1